

كتاب الاعتبار

obeikandi.com

الباب الاول

obeikandi.com

حروب واسفار

معركة قنسرين ضد الفرنجة سنة ٥٣٠هـ

ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيرا ، وكان وصل من الامام الراشد بن المسترشد ، رحمهما الله ، ابن بشر (١) رسولا الى اتابك يستدعيه فحضر ذلك المصاف ، وعليه جوشن منذهب ، قطعنه فارس من الافرنج ، يقال له ابن الدقيق (٢) ، في صدره اخرج الرمح من ظهره ، رحمه الله ، بل قتل من الافرنج خلق كثير . وأمر اتابك ، رحمه الله ، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن ، فكانت قدر ثلاث الاف رأس .

ثم ان ملك الروم عاد خرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، واتفق هو والافرنج ، خذلهم الله ، وأجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها ، فقال لي صلاح الدين (٣) « ما ترى ما فعله هذا الولد المذكل ؟ » ، يعني ابنه شهاب الدين أحمد ، قلت : « وأي شيء فعل ؟ » قال : « انفذ الي يقول ابصر من يتولى بلدك » ، قلت : « وأي شيء عملت ؟ » قال : « دفنت الى اتابك أقول » (تسلم موضعك) ، قلت : « بدس ما فعلت ! اما يقول لك اتابك : لما كانت لحما اكلها ، ولما صارت عظما رماها علي ؟ » قال : « فأي شيء اعمل ؟ » قلت : « أنا اجلس فيها ، فان سلم الله تعالى كان بسعادتك ، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك ، وان اخذ الموضع وقتلنا كان بأجالنا ، وأنت معذور » ، قال : « ما قال لي هذا القول احد غيرك » .

وتوهمت انه يفعل ذلك ، فحلت الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر ، فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال : « يقول لك صلاح الدين : نحن بعد غد سائرون إلى الموصل فاعمل

شغاك للمسير ، فورد على قلبي من هذا هم عظيم وقلت : « أتترك أولادي وأخوتي في الحصار وأسير إلى الموصل ؟ » ، فاصبحت ركبت إليه وهو في الخيام استأنفته في الرواح الى شيزر لأحضر لي ذفقة ومالا نحتاج إليه في الطريق . فأنن وقال : « لاتبطيء » ، فركبت ومضيت إلى شيزر ، فبدأ منه ما أودش قلبي ، وعزل ابني مبارك وذفذ إلى داري ، فرفع كل ما فيها من الخيام والسلاح والرحل وقبض على ابن اختي ، وتتبع أصحابي - فكانت ذكبة كبيرة رائعة .

(من شيزر إلى دمشق)

فاقتضت الحال مسيري الى دمشق ، ورسل أتابك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق ، فاقمت فيها ثمانين سنين ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها ، رحمه الله ، العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام - يضاف ذلك الى اشتغال الامير معين الدين ، رحمه الله علي ، وملازمتي له ، ورعايته لأسبابي .

ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله ، وفرطت في أملاكي ما كان نكبة أخرى . كل ذلك والامير معين الدين ، رحمه الله ، مدسن مجمل كثير التأسف على مفارقتي ، مقر بالعجز عن أمري ، حتى أنه أنفذ إلي كاتبه الحاجب محمود المسترشدي ، رحمه الله ، قال : « والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك . لكن الناس كلهم قد تماؤوا علي ومالي بهم طاقة ، وحيث كنت ، فالذي بيننا من المودة على احسن حاله (٤) » . ففي ذلك أقول :

معين الدين كم لك طوق من

بجيدي مثل أطواق الحمام

تعينني لك الاحسان طوعا

وفي الاحسان رق الكرام

فصار الى مودتك انتسابي

وان كنت العظامي العصامي

الم تعلم بانني لانتماي

اليك رمى سواي كل رام

ولولا انت لم يصحب شمائي

لقر دون إعذار الدسام

- ٥٥٨٣ -

ولكن خفت من نار الاعادي

عليك فكننت إطفاء الضرام (٥)

(من دمشق الى القاهرة)

فكان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة ، فقربني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع علي بين يديه ، ودفع لي تخت ثياب ومائة دينار ، وخذلني دخول الحمام ، وانزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش ، في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبّة كبيرة ، وآلتها من النحاس ، كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة في إكرام وإحترام وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج .

فوقع بين السودان ، وهم في خلق عظيم ، شر وخلاف : بين الريحانية ، وهم عبيد الحافظ ، وبين الجيوشية (٦) والاسكندرية والفرحية ، فكان الريحانية في جانب ، وهؤلاء كلهم في جانب ، متفقين على الريحانية ، وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص ، فاجتمع من الفريقين خلق عظيم ، وغاب عنهم الحافظ ، وترددت إليهم رسله ، وحرص على ان يصلح بينهم . فما أجابوا إلى ذلك ، وهم معه في جانب البلد ، فاصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية ، فقتلت منهم في سويقة أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة ، ونحن نبيت ونصبح بالسلح خوفا من ميلهم علينا ، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلى مصر .

وظن الناس لما قتل الريحانية أن الحافظ يذكر ذلك ويوقع بقاتليهم ، وكان مريضا على شفا ، فمات ، رحمه الله ، بعد يومين ، وما انتطح فيها عنزان .

وجلس بعده الظافر بأمر الله ، وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخا كبيرا ، والامير سيف الدين ابو الحسن علي بن السلار ، رحمه الله ، إذ ذاك في ولايته (٧) ، فدشد

وجمع وسار إلى القاهرة ، ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ، ونفذ إلينا زمام القصور (٨) يقول : « يا أمراء هذا نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمثل أمره » فقال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » فرجع الزمام بهذا الجواب .

فقال أمير من الأمراء شيخ يقال له لكرون : « يا أمراء ، نترك علي بن السلار يقتل ؟ » قالوا : « لا والله » قال : « فقوموا » فذفروا كلهم وخرجوا من القصر شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا إلى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال : « اخرج إلى الحوفر (٩) ، اجمع واحدش وانفق فيهم ، وادفع ابن السلار » فخرج لذلك .

ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره ، وأفرد لي موضعا في الدار أكون فيه ، وابن مصال في الحوفر قد جمع من لواته (١٠) ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقا كثيرا . وقد خرج عباس ركن الدين ، وهو ابن امرأة علي بن السلار ، ضرب خيمة في ظاهر مصر ، فغدت سرية من لواته ، ومعهم نسيب لابن مصال ، وقصدوا مخيم عباس ، فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايستهم .

وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار ، وقال : « هؤلاء الكلاب - يعني جند مصر - قد شغلوا الأمير - يعني عباسا - بالفوارغ ، حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة ، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة ، والأمير موافقهم » قلت : « يامولاي ، نركب إليهم في سحر ، وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى ، قال : صواب أبكر في

ركوبك ، فخرجنا إليهم من بكرة ، فلم يسلم منهم إلا من سبحت به فرسه في النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال ضربت رقبتة .

وجمع العسكر مع عباس وسيره الى ابن مصال ، فلقية على دلاص (١١) ، فكسرهم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل ، وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة ، ولم يبق لسيف الدين من يعانده ولا يشاqqه .

وخلع عليه الظافر خلع الوزارة ولقبه الملك العادل ، وتولى الامور .

كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمرة له الشر ، فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن استمالهم وأنفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه ، وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل واقتراق اصحاب العادل ، وانا تلك الليلة عنده .

فلما فرغ الناس من العشاء واقترقوا ، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين عليه ، أحضر رجلين من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار التي هم فيها مجتمعون ، وكانت الدار ، لما أراد الله من سلامة بعضهم ، لها بابان : الواحد قريب من دار العادل ، والآخر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب ، قبل وصول أصحابهم إلى الباب الآخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب ، وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال ، كانوا أصدقاء غلماني نخبتهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين ، ومن ظفر بهم منهم قتل .

ومن عجيب ما رايت في ذلك اليوم أن رجلا من السودان المنين كانوا في العملة انهزم إلى علو داري ، والرجال بالسيف خلفه ،

فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفي الدار شجرة نبق (١٢) كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة ، فثبت عليها ، ثم نزل ودخل من كم (١٣) مجلس قريب منه فوطىء على منارة نحاس ، فكسرها ، ودخل إلى خلف رحل في المجلس اختبأ فيه .

وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه ، فصحت عليهم وأطلعت إليهم الغلمان ، دفعوهم ، ودخلت الى ذلك الأسود ، فنزع كساء كان عليه وقال : « خذه لك » ، قلت « أكثر الله خيرك ، ما احتجاجة » وأخرجته وسيرت معه قوما من غلماني ، فنجا .

وجالست في صفة في دهليز داري ، فدخل علي شاب سلم وجلس ، فرأيت حسن الحديث حسن المحاضرة ، هو يتحدث وأنسان استدعاه فمضى معه ، وذهبت خلفه غلاما يبصر لماذا استدعي ، وكنت بالقرب من دار العادل ، فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبتة ، فقتل ، وعاد الغلام ، وقد استخبر عن ذنبه ، فقليل له : « كان يزور الدواقيع » ، فسبحان مقدر الاعمار ، وموقت الاجال .

وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان .

وتقدم إلي الملك العادل ، رحمه الله ، بالتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وقال : « تأخذ معك مالا وتمضي إليه لينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا ، لنخرج من هاهنا نخرب غزة » .

وكان الافرنج ، خذلهم الله ، قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، قلت : « يامولاي ، فان اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه ، اي شيء تأمرني ؟ » قال : « إن نزل على طبرية ، فأعطه المال الذي معك ، وإن كان له مانع ، فديون (١٤) من قدرت عليه من الجند واطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الافرنج ، واكتب إلي بوصولك لأمرك بما تعمل » .

ودفع إلي ستة آلاف دينار مصرية ، وحمل جمل ثياب ديبقي (١٥)
وسقلاطون ومسنبج ودمياطي (١٦) وعمائم ، ورتب معي قوما من
العرب أدلاء .

وسرت وقد ازاح علة سفري بكل ما احتاجه من كثير وقليل ، فلما
دزونا من الجفر (١٧) قال لي الادلاء « هذا مكان لا يكاد يخلو من
الافرنج » ، فامرت اثنين من الادلاء ركبا مهريين ، وسارا قدامنا
إلى الجفر ، فما لبثا أن عادا ، والمهاري تطير بهما ، وقالا :
« الافرنج على الجفر ! » ، فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي
ورفاقا من السفارة كانوا معي ، ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة
فوارس من ممالكي وقلت : « تقدمونا ، وأنا في إثركم » ، فساروا
يركضون وأنا أسير خلفهم ، فعاد إلي واحد منهم وقال : « ما على
الجفر أحد ، ولعلمهم ابصروا عربانا » . وتنازع هو والادلاء . فذفدت
من رد الجمال ، وسرت .

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك
العشب رجل عليه ثوب أسود ، فأخذناه ، وتفرق أصحابي فأخذوا
رجلا آخر وامرأتين وصبياننا ، فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي
وقالت : « يا شيخ ، أنا في حسبك » ، قلت : « انت آمنة ، مالك ؟ »
قالت « قد اخذ أصحابك لي ثوبا وناهقا ونابحا وخرزة » ، قلت
لغلماني : « من كان أخذ شيئا يرده » .

فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين ، قالت : « هذا
الثوب » .

وأحضر آخر قطعة سندروس (١٨) قالت : « هذه الخرزة » ،
قلت : « فالحمار والكلب ؟ » قالت : « الحمار قد ربطوا يديه
ورجليه ، وهو مرمي في العشب ، والكلب مفلوت يعدو من مكان إلى
مكان » .

فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمرا عظيما ، قد يبست جلودهم
على عظامهم ، قلت « ايش أنتم ؟ » قالوا : « نحن من بني أبي » ،
وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون إلا الميتة ويقولون :
« نحن خير العرب ، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى » ،
وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له واطعموه من غير طعامهم ، قلت :
« ما جاء بكم الى هاهنا ؟ » قالوا : « لنا بدسمى (١٩) كثول ذرة
مطمورة جئنا نأخذها » قلت : « وكم لكم هنا ؟ » قالوا : « من عيد
رمضان لنا هاهنا ، ومارأينا الزاد بأعيننا » ، قلت : « فمن أين
تعيشون ؟ » قالوا « من الرمة ، (يعذون العظام البالية الملقاة)
ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الارض) ونتقوت
به » ، قلت : « فكلايكم وحمركم ؟ » قالوا : « الكلاب نطعمهم من
عيشنا ، والحمير تأكل الحشيش » ، قلت : « فلم لا تدخلتم الى
دمشق ؟ » قالوا : « خفنا الوباء » ، ولا وباء اعظم مما كانوا فيه ! ،
وكان ذلك بعد عيد الاضحى .

فوقفت حتى جاءت الجمال ، وأعطيتهم من الزاد الذي كان
معنا ، وقطعت فوطه كانت على رأسي أعطيتها للمراتين ، فكادت
عقولهم تزول من فرحهم بالزاد ، وقلت : « لا تقيموا هاهنا يسبوكم
الافرنج » .

ومن طريف ما جرى لي في الطريق أنني نزلت ليلة أصلي المغرب
والعشاء قصرا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من
الارض وقلت للغلمان : « تفرقوا في طلب الجمال ، وعودوا إلي ،
فأنا ما أزول من مكاني » ، فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم ،
فعادوا كلهم إلي وقالوا : « ما لقيناهم ، ولا ندري كيف مضوا » ،
فقلت : « نستعين بالله تعالى ونسير على الذوء » ، فسرنا ونحن قد
أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمر صعب .

وفي الادلاء رجل يقال له جرية فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا
علم انا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحة وجعل يقده ، وهو على

الجمال ، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا ، فرأيناه على البعد ،
فقصدنا النار حتى لدقناهم ، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل
كنا هلكنا .

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل ، رحمه الله ، قال
لي « لا تعلم الادلاء الذين معك بالمال » ، فجعلت أربعة آلاف دينار في
خرج على بغل سروجي مجذوب معي وسلمته إلى غلام ، وجعلت
ألفي دينار ونفقة لي وسرفسار (٢٠) وبنانير مغربية في خرج على
حصان مجذوب معي وسلمته إلى غلام ، فكنت إذا نزلت جعلت
الآخراخ في وسط بساط ، ورددت طرفيه عليها ، وبسطت فوقه
بساطا آخر ، وأنام على الآخراخ وأقوم وقت الرحيل قبل
أصحابي ، يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانهما ،
فاذا شداهما على الجنايب ركبت وأيقظت أصحابي وتهمنا
بالرحيل .

فنزلنا ليلة في تيه بني إسرائيل ، فلما قمت للرحيل جاء الغلام
الذي معه البغل المجذوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار
يريد يشده بالسموط ، فزل البغل ، وخرج يركض وعليه الخرج
فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلماني :
« اركب ، اركب » .

وركضت خلف البغل فما لدقته ، وهو كأنه حمار وحش ،
وحصاني قد أعيا من الطريق ، ولحقني الغلام ، فقلت « اتبع البغل
كذا » ، فمضى وقال : « والله يامولاي ، مارأيت البغل ، ولقيت هذا
الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت اطلب ، والبغل أهون
مفقود » .

ورجعت إلى المنزل وإذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة
الخيول ووقف ، فكانه ما كان قصده إلا تضییع أربعة آلاف دينار .

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، على دمشق ، وقد وصل إلى بصرى الأمير أسد الدين شيركوه رحمه الله ، فسرت معه إلى العسكر فوصلته ليلة الاثنين ، وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به ، فقال لي : « يا فلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما » ، قلت له : « فتأذن لي ان أديون من محرومي الجند قوما أخذهم وأرجع ، وتنفذ معي رجلا من اصحابك في ثلاثين فارسا ليكون الاسم لك » قال : « أفعل » .

فديونت إلى الاثنين الآخر ثمانمائة وستين فارسا وأخذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق .

وسير معي نور الدين الامير عين الدولة الياروقسي في ثلاثين فارسا فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم (٢١) ، فنزلت فيه ودخلت صليت في المسجد ، ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه ، فجاء أمير من الاتراك الذين كانوا معي يقال له برسق ، يريد الدخول في ذلك الشق الضيق ، قلت : « أي شيء تعمل في هذا ؟ صل برا » قال : « لا إله الا الله ، أنا حرام إذا حتى لا أدخل في ذلك الشق الضيق ؟ » قلت : « أي شيء تقول ؟ » قال : « هذا الموضع ما يدخل فيه ولدنا ، ما يستطيع الدخول » .

فأوجب قوله أن قمت دخلت في ذلك الموضع صليت ، وخرجت ، وأنا - الله يعلم - ما أصدق ما قاله ، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا .

ومعي في الجند براق الزبيدي معه عبد له أسود دين كثير الصلاة ، أدق ما يكون من الرجال وأذبههم (٢٢) فجاء إلى ذلك الموضع ، وحرص بكل حرص على الدخول ، فما قدر يدخل ، فبكى المسكين وتوجع وتحسر ، وعاد بعد الغلبة عن الدخول .

فلما وصلنا عسقلان سحر ، ووضعنا اثقالنا عند المصلى ،
صبحونا الافرنج عند طلوع الشمس ، فخرج الينا ناصر الدولة
ياقوت ، والي عسقلان ، فقال : « ارفعوا ، ارفعوا اثقالكم » ،
قلت : « تخاف لا يغلّبونا الافرنج عليها ؟ » قال : « نعم » ، قلت :
« لاتخف ، هم يرونا في البرية ويعارضونا ، إلى أن وصلنا إلى
عسقلان ، ما خفناهم ، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا ؟ !

ثم إن الافرنج وقفوا على بعد ساعة ، ثم رجعوا إلى بلادهم
جمعوا لنا وجاءونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازل
عسقلان ، فخرجنا إليهم ، وقد خرج راجل عسقلان ، فدرت على
سرب الرجالة وقلت : « يا أصحابنا ، إرجعوا إلى سوركم ، ودعونا
وإياهم ، فان نصرنا عليهم فأنتم تلحقونا ، وإن نصرنا علينا كنتم
أنتم سالمين عند سوركم » ، فامتنعوا من الرجوع ، فتركهم
ومضيت إلى الافرنج ، وقد حطوا خيامهم ليضربوها ، فاحتطنا
بهم ، وأعجلناهم عن طي خيامهم ، فرموها كما هي منشورة
وساروا راجعين .

فلما اندسحوا عن البلد تبعهم من السوقيين أقوام ما عندهم منعة
ولا غناء ، فرجع الافرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرا ،
فانهزمت الرجالة ، الذين رددتهم فما رجعوا ، ورموا تراسهم ،
ولقينا الافرنج ، فرددناهم ، ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة
من عسقلان .

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون ، وقالوا : « كان ابن
منقذ أخبر منا ، قال لنا : ارجعوا ، ما فعلنا حتى انهزمنا
وافترضنا » .

وكان أخي عز الدولة ابو الحسن علي ، رحمه الله ، في جملة من
سار معي من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان ، وكان ، رحمه

الله ، من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا الدنيا ، فخرجنا يوما من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل (٢٣) وقتالها ، فوصلناها وقتلناهم ، ورأيت عند رجوعنا على البلد غلة كبيرة ، فوقفت في أصحابي وقدحنا نارا وطرحناها في البيادر ، وصرنا نتنقل من موضع إلى موضع ، ومضى العسكر تقدمني ، فاجتمع الأفرنج ، لعنهم الله ، من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للأفرنج ، لمغادة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا .

فجاءني فارس منهم يركض وقال : « قد جاء الأفرنج ! » فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الأفرنج ، وهم ، لعنهم الله ، أكثر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الرابيتين فضاء ، أصحابنا المذقوعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم في قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين .

وما زال الأفرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا إلينا ، فاندفعنا بين أيديهم - والقتال بيننا - لا يجدون في طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذه ، ثم عادوا عنا .

وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم ، ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم ، كما نصرنا علينا ، كنا أفيناهم .

فأقامت بعسقلان لمحاربة الأفرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة يبنى (٢٤) وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى .

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل ، رحمه الله ، يستدعيني . فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي ، رحمه الله ، بعسقلان ، فخرج عسكرها إلى قتال غزة

فاستشهد ، رحمه الله ، وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم .

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار ، رحمه الله ، فإنه كان جهز عسكرا إلى بلبيس ، ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن باديس ، لحفظ البلاد من الأفرنج ، ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، رحمه الله ، فأقام مع أبيه في العسكر أياما ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأذكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى العسكر ، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من المقام في العسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورتب معه قوما من غلمانه ، يهجم بهم على العادل في داره إذا ابرد في دار الحرم ونام ، فيقتله .

وقرر مع استاذ من استاذي دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل جدته ، فهو يدخل إليها بغير استئذان .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الاستاذ بذومه ، فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه ، فقتلوه ، رحمه الله ، وقطع رأسه وحمله إلى الظافر ، وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب الذوبة نحو من ألف رجل ، لكنهم في دار السلام ، وهو قتل في دار الحرم فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين : فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ، وفرقة رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر بن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته (٢٥) .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة ، وخلع

عليه الظافر وفوض إليه الأمر ، وابنه نصر مخالطه ومعاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه ، لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفتنهم ويحدووا كلما لهم ، حتى يتفانوا ، فأحضرتني ليلة وهما في خلوة يتعاطيان ، وعباس يردد عليه الكلام ، وابنه مطرق كأنه نمر يرد عليه كلمة بعد كلمة يشتاظ منها عباس ويزيد في لومه وتأنيه ، فقلت لعباس : « يا مولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟ اجعل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمل ، ما أتبرا من خطئه ولا صوابه ، أي شيء هو ذنبه ؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بذفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة » ، فأمسك عنه والده ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرته يوما وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أياما وحمل إليه من الكسوات من كل نوع مالا رأيت مثله مجتمعاً قبله ، وأغفله أياما . وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياما . وبعث إليه ثلاثين بغلا رحلا (٢٦) وأربعين جملا بعدها وغرائرها وحبالها .

وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلا ولا نهارا ، أنام ورأسي على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل ، فتحدث معه إلى ثلث الليل ، وأنا معتزل عنهما ثم انصرف . فاستدعاني وقال : « أين أنت ؟ » قلت : « عند الطاقة اقرأ القرآن ، فإنني اليوم ما تفرغت اقرأ » ، فابتدأ يفاتحني بشيء مما كان فيه ليبر ما عندي في ذلك ، ويريد بي أقوى عزمه على سوء ما قد حملة

عليه الظافر ، فقلت : « يامولاي ، لا يستذك الشيطان وتنخضع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه إلى يوم القيامة » . فأطرق ، وقاطعني الحديث ، ونمنا .

فأطلع والده على الأمر ، فلاطفه ، واستماله ، وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان في الليل متذكرين ، وهما اتراب ، وسنهما واحدة ، فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السيوفيين ، ورتب من أصحابه نفرًا في جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ورماه في جب في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجالس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر ، وقال : « ما مولانا ما جلس للسلام ؟ » فتبدل الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال : « مالك لاتجاوبني ؟ » قال : « يامولاي مولانا ما ندرى أين هو » ، قال : « مثل مولانا يضيع ؟ أرجع فاكشف الحال » . فمضى ورجع وقال : « ما وجدنا مولانا » . فقال عباس : « ما يبقى الناس بلا خليفة ، ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد نبايعه » ، فمضى وعاد وقال : « الموالي يقولون لك : نحن ما لنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر ، والأمر لولده بعده ، قال : « اخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : « أخوته قتلوه » ويقتلهم به ، فخرح ولد الظافر ، وهو صبي محمول على كتف استاذ من استاذي القصر ، فأخذه عباس ، فحملة ، وبكى الناس ، ثم

دخل به ، وهو حامله ، إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ :
الامير يوسف ، والامير جبريل ، وابن اخيه الامير أبو البقاء .

ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من
المصريين ، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلى القاعة ،
وصوت السيوف على إنسان ، فقلت لغلام لي أرمني : « أبصر من
هذا المقتول » ، فمضى ثم عاد وقال : « ما هؤلاء مسلمون ! هذا
مولاي أبو الامانة ، يعني الامير جبريل ، قد قتلوه ، وواحد قد شق
بطنه يجذب مصارينه » ، ثم خرج عباس ، وقد أخذ رأس الامير
يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفور
منه ، وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس ، فأدخلوهما ، في
خزانة في القصر وقتلوهما ، وفي القصر ألف سيف مجردة .

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي ، لما جرى فيه من
البغي القبيح الذي يذكره الله تعالى وجميع الخلق .

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم أن عباسا لما أراد الدخول إلى
المجلس وجد بابه قد قفل من داخل ، وكان يتولى فتح المجلس وغلقه
استاذ شيخ يقال له أمين الملك ، فاحتالوا في الباب حتى فتحوه ،
ودخلوا فوجدوا ذلك الاستاذ خلف الباب ، وهو ميت ، وفي يده
المفتاح .

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس على جند مصر ،
فإنه لما فعل بأولاد الحافظ ، رحمه الله ، ما فعل جفت عليه قلوب
الناس ، وأضمرُوا فيها العداوة والبغضاء ، وكاتب من في القصر من
بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك ، رحمه
الله ، يستصرخون به . وحشد ، وخرج من ولايته (٢٧) يريد
القاهرة ، فأمر عباس فعمرت المراكب ، وحمل فيها الزاد والسلاح
والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه ، وذلك يوم

الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين ، وأمر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة ، وقال لي : « تقيم معه » .

فلما خرج من داره متوجها الى لقاء ابن رزيك خامر عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والازقة : خيالهم تقاتلنا في الطريق ، ورجالهم يرموننا بالذشاب والحجارة من على السطوحات ، والذساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات ، ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى نهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا ، ولحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل ، وعاد إلى داره وأمره ونهيه .

وأمر بإحراق البرقية (٢٨) لأنها مجمع دور الأجناد ، فتلطفت الأمر معه وقلت : « يامولاي إذا وقعت النار أحرقت ما تريد وما لاتريد ، وبعلت (٢٩) عن ان تطفئها » . ورددت رأيه عن ذلك .

وأخذت الأمان للامير المؤتمن بن أبي رمادة ، بعد أن أمر بتلافه ، واعتذرت عنه ، فصدح عن جرمه .

(أسامة يعود إلى دمشق)

ثم سكنت تلك الفتنة ، وقد ارتاع منها عباس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء ، وأنه لا مقام له بينهم ، وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام الى الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، يستنجد به ، والرسول بين من في القصور وبين ابن رزيق مترددة ، وكان بيني وبينه ، رحمه الله ، مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر ، فنفذ إلي رسولا يقول لي : « عباس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بيني وبينك ، فلا تخرج معه ، فهو بحاجة إليك في الشام يرغبك ويخرجك معه ، قاله الله لا تصحبه ، فأنت شريك في كل خير أنا له » . فكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك ، أو توهمه لما يعلمه بيني وبين ابن رزيق من المودة .

فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الأفرنج ، فإنه لما توهم من أمري وأمر ابن رزيق ما توهمه ، أو بلغه ، أحضرني واستدافني بالإيمان المغلظة التي لا مخرج منها أنني أخرج معه وأصحبه ، ولم يقنعه ذلك حتى نفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمة أخذ أهلي والدي وأولادي إلى داره ، وقال لي : « أنا أحمل كلفتهم عنك في الطريق ، وأحملهم مع والدنا ناصر الدين » .

واهتم بأمر سفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجذوبة على أيدي الرجال ، كعادتهم بمصر ، ومائتا بغل رحل ، وأربع مائة جمل تحمل أثقاله .

وكان كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة ، فحضرتة وقد دخل عليه غلام يقال له عذير الكبير ، وهو متولي أموره كبيرها وصغيرها ، فقال له : « يامولاي ، أي شيء مرجو من مسيرنا إلى

الشام ؟ خذ خزانةك وأهلك وغلمانك ومن تبعك وسر بنا إلى الاسكندرية ، نحشد من هناك ونجمع ، ونرجع إلى ابن رزيك ومن معه ، فإن نصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك ، وإن عجزنا عنه عدنا إلى الاسكندرية إلى بلاد نحتمي فيه ، ويمتنع على عدونا » ، فنهـره وخطأ رأيه ، وكان الصواب معه .

ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بسكرة ، فلما حضرت عنده قلت : « يامولاي ، إذا كنت عندك من الفجر إلى الليل فمتى أعمل شغل سفري ؟ » قال : « عندنا رسل من دمشق ، تسيرهم وتمضي تعمل شغلك » .

وكان قبل ذلك أحضر قوما من الأمراء واستحلفهم أنهم لا يخذلونه ولا يخامرون عليه ، وأحضر جماعة من مقدمي العرب من درماء ، وزريق ، وجذام ، وسنابس ، وطلحة ، وجعفر ، ولواته ، واستحلفهم بالمصدق والطلاق ، على مثل ذلك ، فما راعنا ، وأنا عنده بكرة الجمعة ، إلا والناس قد لبسوا السلاح ، وزحفوا إلينا ورؤوسهم الأمراء الذين استحلفهم بالألمس ، فأمر بشد دوابه فشدت وأوقفت على باب داره ، فكانت بيننا وبين المصريين كالسد لا يصلون إلينا لا زحام الدواب دوننا .

فخرج إليهم غلامه عذير الكبير الذي كان اشارة عليه بذلك الرأي ، وهو زمامهم ، صاح عليهم وشتمهم ، وقال : « روحوا إلى بيوتكم » ، فسيبوا الدواب ومضى الركابية والمكارية والجمالون ، وبقيت الدواب مهملة . ووقع فيها النهب .

فقال لي عباس : « اخرج أحضر الأتراك ، وهم عند باب النصر ، والكتاب يذفقون فيهم » ، فلما جئتهم واستدعيتهم ركبوا كلهم ، وهم في ثمانمائة فارس ، وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال ، وركب المماليك ، وهم أكثر من الأتراك ، وخرجوا أيضا من باب النصر ، ورجعت إليه عرفته ، ثم اشتغلت باخراج أهلي

الذين كان حملهم إلى داره ، فاخرجتهم وأخرجت حرم عباس ، فلما خلت الطريق ونهبت تلك الدواب بأجمعها وصل المصريون إلينا فاخرجونا ، ونحن في قلة ، وهم في خلق كثير .

فلما خرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فاخذوا من قاعة داري أربعين غرارة جمالية مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا من اصطبلي ستة وثلاثين حصانا وبغلة سروجية بسرورها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملا ، وأخذوا من اقطاعي من كوم اشفين مائتي رأس بقرة للتناثين وألف شية (٣٠) وأهراء غلة .

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلهم عباس ، وقاتلونا من يوم الجمعة ضحى نهار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلونا النهار كله ، فإذا جن الليل ونزلنا أغفلونا إلى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فارس ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه .

وانقطعت يوما عن أصحابي وتحتي حصان أبيض ، هو أردأ خيلي ، شده الركابي ولا يدري ما يجري ، وما معي من السلاح غير سيفي ، فحمل علي العرب فلم أجد ما أدفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصاني ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : « أثب عن الحصان واجذب سيفي ، أدفعهم » ، فجمعت نفسي لأثب ، ففتتعت الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت قطعة من جلدة رأسي وبخت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه ، فوقف علي منهم قوم ، وأنا جالس مكشوف الرأس ، غائب الذهن ، وسيفي مرمي بجهازه ، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : « هات الوزن » وأنا لا أدري ما يقول ، ثم أخذوا حصاني وسيفي .

ورأني الاتراك فعادوا إلي ، ودفذلي ناصر الدين ابن عباس

حصانا وسيفا وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي ،
فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد ، وإذا اردت ماء ترجلت شربت
بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري على كرسي
وعرضوا علي ستة عشر حمل روايا ، وما شاء الله سبحانه من
القرب والسطائح .

وعجزت عن حمل أهلي ، فرددتهم من بليس إلى عند الملك
الصالح أبي الفارات طلائع بن رزيك ، رحمه الله ، فأحسن إليهم
وأنزلهم في دار ، وأجرى لهم ما يحتاجونه ، ولما أراد العرب النين
يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا (٢١) إذا عنا .

وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الأول ، فصباحنا
الافرنج في جمعهم على المويلح (٢٢) فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك
واسروا ابنه ناصر الدين ، وأخذوا خزانته وحرمه ، وقتلوا من
ظفروا به . وأخذوا أخي نجم الدين أبا عبد الله محمدا ، رحمه
الله ، أسيرا . وعادوا عنا ، ونحن قد تحصنا عنهم في الجبال .

فسرنا في أشد من الموت في بلاد الافرنج بغير زاد للرجال ولا علف
للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فheid ، لعنهم الله ، في وادي موسى .

وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة إلى أرض فسيحة ، ورجال
وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرد قتلوه .

وتلك الناحية لاتخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين ،
فسألت : « من ها هنا من الأمراء بني ربيعة ؟ » قالوا : « منصور
ابن دغفل » ، وهو صديقي ، فدفعت لواحد دينارين وقلت : « امض
إلى منصور قل له صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل إليه
بكرة » ، وبتنا في مبيت سوء من خوفهم . فلما اضاء الصبح أخذوا

عدتهم ووقفوا على العين وقالوا: « ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش » وتلك العين تكفي ربيعاً ومضر ، وكم في أرضهم مثلها ، وإنما قصدهم أن يذشوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا . فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن دغفل وصل ، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا . وقال : « اركب » . فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر ، فنزلنا إلى الوطاسالين ، وما كننا نسلم ، فجمعت للامير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه ، وعاد .

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الأفرنج وبني فهد ، يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة ، وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل ، وحسن دفاعه .

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الواقعة أن الظافر كان أرسل إلى ابن عباس رهوارا (٢٣) صغيرا مليحا أفرنجيا ، وكنت قد خرجت إلى قرية لي ، وابني أبو الفوارس مرهف عند ابن عباس ، فقال : « كنا نريد لهذا رهوار سرجا مليحا من السروج الغزية » ، فقال له ابني : « قد وجدته ، يامولاي ، وهو فوق الغرض » . قال : « أين هو ؟ » قال : « في دار خادمك والذي ، له سرج غزي مليح » ، قال : « أنفذ أحضره » ، فأرسل رسولا إلى داري أخذ السرج ، فأعجبه ، وشد به على رهوار ، وكان السرج طلع معي من الشام على بعض الجنائب وهو منبت مجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقال وثلاثون مثقالا .

ووصلت أنا من الاقطاع ، فقال لي ناصر الدين : « ادلنا عليك واخذنا هذا السرج من دارك » ، فقلت : « يامولاي ، ما أسعدني بخدمتك ! » فلما خرج علينا الأفرنج بالويلع كان معي من مماليكي خمسة رجال على الجمال أخذت العرب خيلهم ، فلما وقع الأفرنج بقيت الخيل سائبة ، فنزل الغلمان عن الجمال واعترضوا الخيل

وأخذوا منها ماركبوه ، فكان على بعض الخيل التي أخذوها ذلك السرج الذهب الذي أخذه ابن عباس .

وكان حسام الملك ابن عم عباس ، واخو عباس ابن العادل قد سلما فيمن سلم منا ، وقد سمع حسام الملك خبر السرج فقال وأنا أسمع : « كل ما كان لهذا المسكين - يعني ابن عباس - نهب ، فمنه ما نهبه الأفرنج ، ومنه ما نهبه أصحابه » ، قلت : « لعلك تعني السرج الذهب » ؟ قال : « نعم » .

فامرت باحضاره وقلت : « اقرأ ما عليه ، اسم عباس عليه واسم ابنه أو اسمي ؟ ، ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج نهب في أيام الحافظ غيري ؟ » ، وكان اسمي مكتوبا على دائر السرج بالسواد ، ووسطه منبت ، فلما قرأ ما عليه اعتذر وسكت .

ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة كان اتعظ بما جرى قبله للأفضل رضوان بن الولخي ، رحمه الله ، كان وزيرا فقام الجند عليه بأمر الحافظ كما قاموا على عباس ، فخرج من مصر يريد الشام ، ونهبت داره وحرمه ، حتى أن رجلا يعرف بالقائد مقبل ، رأى مع السودان جارية فاشتراها منهم وبعثها إلى داره ، وكانت له امرأة صالحة ، فاطلعت الجارية إلى حجرة في علو الدار فسمعتها تقول : « لعل الله يظفرنا بمن بغى علينا وكفر نعمتنا » ، فسألتها : « من أنت ؟ » فقالت : « أنا قطر الندى بنت رضوان » ، فنفذت المرأة إلى زوجها القائد مقبل أحضرته وهو على باب القصر في خدمته ، فعرفته حال البنت ، فكتب إلى الحافظ مطالعة ، فعرفه بذلك ، فنفذ من خدام القصر من أخذها من دار مقبل ورفعها إلى القصر .

ثم إن رضوان وصل إلى صلخد ، وفيها أمين الدولة كمشتكين الأتابكي (٢٤) ، رحمه الله ، فأكرمه وأنزله وخدمه ، وملك الأمراء أتابك زنكي بن أفسنقر ، رحمه الله ، على بعلبك يحاصرها ،

فراسل رضوان واستقر أنه يمضي إليه ، وكان رجلا كاملا كريما شجاعا كاتباً عارفا ، وللجند إليه ميل عظيم لكرمه ، فقال لي الأمير معين الدين ، رضي الله عنه : « هذا الرجل إن انضاف إلى أتاك دخل علينا منه ضرر كثير » ، قلت : « فأني شيء ترى ؟ » قال : « تسير إليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتاك ، ويكون وصوله إلى دمشق ، وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك » ، فسرت إليه إلى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحـد وتحدثت معهما ، فقال لي الأفضل رضوان : « قرط الأمر مني ورهنت قولي عند هذا السلطان بوصولي إليه ، ولزمني الوفاء بقولي » ، قلت : « أقدمك الله على خير ! وأنا أعود إلى صاحبي ، فإنه ما يستغني عني ، بعد أن أخرج إليك بما في نفسي » ، قال : « قل » ، قلت : « إذا وصلت إلى أتاك ، معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك إلى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به ؟ » قال : « لا » . قلت : « فإذا هـو نزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر ، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم ، يسير معك إلى مصر قبل أن يجدد بركه ويقوي عسكره ؟ » قال : « لا » . قلت : « ذلك الوقت يقول لك : نسير إلى حلب نجدد آلة سفرنا » ، فإذا وصلتم إلى حلب قال : نمضي إلى الفرات نجـمـع التركمان ، فإذا نزلتم على الفرات قال : « إن لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان » ، فإذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال : « هذا عزيز مصر في خدمتي » ، وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشام فلا تقدر عليها ، وتذكر حينئذ كلامي ، وتقول « نصحني ما قبلت » ، فأطرق مفكرا لا يدري ما يقول ، ثم التفت إلي وقال : « ماذا أعمل ، وأنت تريد ترجع ؟ » قلت : « إن كان في مقامي مصلحة أقمت » ؟ قال : « نعم » ، فاقمت .

وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق ، وأن يكون له ثلاثون ألف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع ، ويكون له دار العقيقي (٣٥) ويخرج لأصحابه ديوان ، وكتب لي خطه بذلك ، وكان كاتباً حسنا ، وقال : « إن شئت سرت معك » ؟ قلت : « لا ، أنا

اسير ومعى الحمام من هاهنا ، فإذا وصلت واخليت الدار ورتبت الامر ، طيرت إليك الحمام وسرت أنا في الوقت ألك في نصف الطريق ، وأدخل بين يديك » ، فتقرر ذلك وودعته وسرت .

وكان أمين الدولة يشتهي مصيره الى مصر لما قد وعده به وأطمعه فيه ، فجمع له من قدر عليه وسيره بعد مفارقتي له ، فلما دخل حدود مصر غدر به النين كانوا معه من الأتراك ونهبوا ثقله (٣٦) ، والتجأ هو إلى حي من أحياء العرب ، وراسل الحافظ وطلب منه الأمان ، وعاد إلى مصر ، فساعة وصوله إلى مصر أمر به الحافظ فحبس هو وولده .

واتفق طلوعي إلى مصر وهو في الحبس في دار في جانب القصر ، فنقب بمسمار حديد أربعة عشر ذراعا وخرج ليلة الخميس ، وله من الأمراء نسيب قد عرف أمره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من لواته ، ومشوا الى النيل عدوا إلى الجيزة ، واختبأت القاهرة لهروبه ، وأصبح في منظرة في الجيزة والناس يجتمعون إليه ، وعسكر مصر قد تأهب لقتاله ، ثم أصبح بكرة الجمعة عدى إلى القاهرة والعسكر المصري مع قيمان صاحب الباب مدر عين اللقاء ، فلما وصلهم هزمهم وبخل القاهرة .

وكننت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر ، قبل دخوله البلد ، فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد ، فرجعت نزلت في داري ، ونزل رضوان في الجامع الأقمر ، واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة ، وقد جمع الحافظ قوما من السودان في القصر شربوا وسكروا ، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا . فلما وقع الصباح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا وخرج هو من الجامع وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح ، فراه رجل من صبيان الخاص واقفا على باب الجامع فقال : « يامولاي ، ما تركب حصاني ؟ » قال : « بلى » ، فجاء إليه يركض وسيفه في يده ، فأوماً كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف ، فوقع ،

ووصله السودان قتلوه ، وتقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعانا ، فقد كان فيه معتبر ، وواعظ لولا نفاذ المشيئة .

وأصاب ذلك اليوم رجلا من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة ، فجاءني أخوه وقال : « أخي تالف ، قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها ، وهو مغمور مايفيق » . قلت : « أرجع أفصده » ، قال : « قد خرج منه عشرون رطل دم » ، قلت : « أرجع أفصده فانا اخبر منك بالجراح ، وليس له دواء غير الفصاد » ، فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر ، قال : « أنا فصدته ، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس » ، قلت : « الحمد لله ! ولولا أنني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك » .

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، وكتب الملك الصالح في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر ، وكان مدسنا إليهم ، فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الأفرنج ، وكتب إلي يقول : « ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وأولادك » .

ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال : « يا فلان ، ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنها ، تعود إليها ! العمر أقصر من ذلك . أنا أنفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الأفرنج وأسيرهم يحضرهم » . فأأنفذ رحمه الله ، أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر .

وسيرت الأمان مع غلام لي ، وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من الذفقات والزاد ، ووصى بهم ، وأقلعوا من

دمياط في بطسه من بطس الأفرنج ، فلما دنوا من عكا والملك ،
لارحمه الله ، نفذ قوما في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس ،
وأصحابي يرونهم ، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه .

فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه وقال له : « يامولاي
الملك ، ما هذا أمانك ؟ » قال : « بلى ، ولكن هذا رسم المسلمين ،
إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد » . قال :
« فتسبينا ؟ » قال : « لا » ، وأنزلهم ، لعنة الله ، في دار وفدتش
النساء حتى أخذ كل ما معهم ، وقد كان في المركب حلي أودعه
النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من
ثلاثين ألف دينار ، فاخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار وقال
« توصلوا بهذه إلى بلادكم » - وكانوا رجالا ونساء في خمسين
نسمة .

وكننت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود (٣٧) رعيان
وكيسون ، فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي ، وأحزننا زهاب
ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة
الألف (٣٨) مجلد من الكتب الفاخرة . فإن زهابها حازرة في قلبي ما
عشت .

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال ، والله سبحانه يعوض
برحمته ويخدم بلطفه ومغفرته ، وتلك وقعات كبار شاهدها مضافة
إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال ، وأجذفت
بهلاك المال .

حروب مع الكفار والمسلمين

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع
الكفار والمسلمين مالا أحصيه ، وسأورد من عجائب ما شاهده
ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره ، وما النسيان بمستذكر لمن

طال عليه ممر الاعوام ، وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام .

فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار ، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا ، صاحب حماة ذلك الوقت ، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب ، والمواكب واقفة والطراد بين المتسعة فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدادين يقال له جمعة من بني زمير ، وهو يبكي ، فقلت له : « ما لك يا أبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ؟ » قال « طعني سرهك ابن أبي منصور » ، قلت : « وإذا طعذك سرهك أي شيء يكون ؟ » قال : « ما يكون شيء إلا يطعني مثل سرهك ! » والله إن الموت أسهل علي من أن يطعني ، لكنه استغفلني واغتالني ، فجعلت أسكنه وأهون الأمر عليه ، فرد رأس فرسه راجعا فقلت : « إلى أين يا أبا محمود ؟ » قال : « إلى سرهك ، والله لأطعنه أو لأموتن دونه » .

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي ، ثم عاد وهو يضحك فقلت : « ما عملت ؟ » فقال : « طعنته والله ، ولو لم أطعنه لفاظت روحي » . فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد (٢٩) ، فكان هذا الشعر عن سرهك وجمعة بقوله :

لله درك ما تظن بثائــــر

حزان ليس عن التراث براقـد

أيقظته ورقدت عنه ولم ينم

حذقا عليك وكيف نوم الجاهد

إن تمكن الايام منك وعـلها

يوما يكل لك بالصواع الزائد

وقد كان سرهك هذا من الفرسان المذكورين مقدما في الاكراد ،

الا انه كان شابا وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدمية في الشجاعة .

وذكرت بفعلة سرهذك ما فعله مالك بن الحارث الا شتر ، رحمه الله ، بأبي مسيكة الايادي .

وذلك أنه لما أرتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق ، رضوان الله عليه ، وعزم الله سبحانه له على قتالهم ، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين ، فكان أبو مسيكة الايادي مع بني حنيفة وكانوا اشد العرب شوكا ، وكان مالك بين الصفيين وصاح : « ياأبا مسيكة ! » فبرز له ، فقال : « ويحك ! ياأبا مسيكة ، بعد الاسلام وقرأة القرآن رجعت إلى الكفر ؟ » فقال : « إياك عني يامالك ! إنهم يحرمون الخمر ، ولاصبر عنها » ، قال : « فهل لك في المبارزة ؟ » قال : « نعم » . فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيف .

فضربه أبو مسيكة فشق رأسه وشتر عينه وبترك الضربة سمي الا شتر .

فرجع وهو معتقد رقبة فرسه إلى رحله ، واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يبكون ، فقال لأحدهم : « ادخل يدك في فمي » ، فادخل أصبعه في فمه ، فعضها مالك ، فالتوى الرجل من الوجع ، فقال مالك : « لا بأس على صاحبكم ، يقال : إذا سلمت الاضراس سلم الرأس ، احشوها - يعني الضربة - سويقا وشدوها بعمامة » . فلما حشوها وشدوها قال : « هاتوا فرسي » ، قالوا : « إلى أين ؟ » قال : « إلى أبي مسيكة » .

فبرز بين الصفيين وصاح : « ياأبا مسيكة ! » فخرج إليه مثل السهم ، فضربه مالك بالسيف على كتفه فشققها إلى سرجه فقتله ، ورجع مالك إلى رحله فبقي أربعين يوما لا يستطيع الحراك ، ثم أبل وعوفي من جرحه ذلك (٤٠)

ومن ذلك ما شاهده من سلامة المطعون ، وقد ظن أنه قد هلك ،
أننا التقينا بؤادر خيل شهاب الدين محمود بن قراجا وقد جاء إلى
أرضنا وكمن لنا كميناً ، فلما تواقفنا نحن وهو انتشرت خيلنا ،
فجاءني فارس من جندنا يقال له علي بن سلام زميري ، وقال :
« أصحابنا قد انتشروا ، إن حملوا عليهم أهل كوههم » ، قلت :
« أحبس عني أخوتي وبني عمي حتى أردهم » ، فقال : « يا أمراء ،
دعوا هذا يرد الناس ولا تتبعوه ، وإلا حملوا عليهم قلعوهم » ،
قالوا : « يمضي » ، فخرجت أنا قل (٤١) حصاني حتى رددتهم ،
وكانوا ممسكين عنهم ليستجروهم ويتمكذوا منهم .

فلما رأوني قد رددتهم حملوا علينا ، وخرج كمينهم وأنا على
فسحة من أصحابي ، فرجعت مباريهم أريد أحمي أعقاب
أصحابي ، فوجدت ابن عمي ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، قد
حذب (٤٢) من وراء أصحابي من قبلي الطريق وأنا في شماليه ،
فجئناهم ، فتسرع فارس من خيلهم يقال له فارس بن زمام ، رجل
عربي فارس مشهور ، وجازنا يريد الطعن في أصحابنا ، فسبقتني
إليه ابن عمي ، قطعته ، فوقع هو وحصانه ووقع الرمح فقعة
سمعتها أنا وأولئك .

وكان الوالد ، رحمه الله ، أرسل رسولا إلى شهاب الدين ،
فأخذه معه لما جاء لقتالنا ، فلما طعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما
أراد نفذ الرسول من مكانه بجواب ما سأل فيه ، ورجع إلى حماة ،
فسألت الرسول : « هل مات فارس بن زمام ؟ » قال : « لا ، والله ،
ولافيه جرح » . قال : « ليث الدولة طعنه ، وأنا أراه ، فرماه ورمى
حصانه ، وسمعت قعقة كسر الرمح ، لما غشيه ليث الدولة من
يساره مال على جاذبه الأيمن وفي يده قنطارية (٤٣) . فوقع حصانه
على قنطاريته وهي على وهدة ، فانكسرت ، وتذنب ليث الدولة
برمحه ، فوقع من يده ، والذي سمعت قعقة قنطارية فارس بن
زمام ، ورمح ليث الدولة أحضره بين يدي شهاب الدين ، وأنا
حاضر ، وهو صحيح ما فيه كسر ، ولا في فارس جرح » . فعجبت

من سلامته ، وكانت تلك الطعنة طعنة فيصل كما قال عنتره :

الخيـل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ورجع جمعهم وكمينهم ما نالوا منه ماأرادوه :
والبيت المقدم من أبيات لعنتره بن شداد يقول فيها :

إنـي أمرؤ من خير عبس منصبا
شطري وأحمي سائري بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت فتلاحظت
ألفيت خيرا من معم مخــــول
إن المنية لو تمثل مثلــــت
مثلي إذا نزلوا بضـك المنزل
والخيـل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصــــل
ودعوا نزال فكنت أول نازل
وعلام أركبه إذا لم أنزل (٤٤))

ومثل ذلك ما جرى لي على أفامية . فإن نجم الدين بن إيلغازي
ابن أرتق ، رحمه الله ، كسر الأفرنج على البلاط ، وذلك يوم
الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة (٤٥))
وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه ، فسار إليه
عمي عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والذي ،
رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرني إلى أفامية بمن
معي بشيزر من الناس ويستدفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية ،
وكان قد هدف من العرب إلينا خلق كثير .

فلما سار عمي نادى المنادي بعد يوميات من مسيره ، وسرت في
نفر قليل ، ما يلحق عشرين فارسا ، ونحن على يقين أن أفامية ما

فيها خيالة ، ومعى خلق عظيم من النهاية والبادية ، فلما صرنا على وادي أبو الميمون ، والنهاية والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الأفرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة سدتون فارسا وستون راجلا .

فكشفونا عن الوادي ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان علي الموت لهلاك ذلك العالم معي ، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا ، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتا .

ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا ، وأنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم ، وتحتي فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم اجتن عنهم .

وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب أنا خائف منه لا يكون جاذبا لي ليعود علي ، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه ، فعلمت أنه قد أعيا ، فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحو من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا اظن أنني قتلته . فجمعت أصحابي وهم سالمون .

وكان معي مملوك صغير يجر فرسا لي دهماء مجذوبة ، وتحتيه بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسببها وركب الحجرة فطارت به الى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة ، سألت عن الغلام فقالوا : « راح » ، فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ، رحمه الله ، فدعوت رجلا من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدي بما جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال : « أي شيء لقيتم ؟ » قال : « يامولاي ، خرج علينا الافرنج في ألف ، وما أظن أحدا يسلم إلا مولاي » ، قال : « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ » قال : « رأيت قد لبس وركب الخضراء ، وفيما هو يحدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ، ووصلت بعده ، فاستخبرني ، رحمه الله ، فقلت : « يامولاي ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الافرنج قد وصلوا إلى الناس هان علي الموت ، فرجعت إلى الافرنج لاقتل أو أحمي ذلك العالم » ، فقال رحمه الله : متمثلا :

يفر جبان القوم عن أم رأسه
ويحمي شجاع القوم من لايلازمه

ووصل عمي ، رحمه الله ، من عند نجم الدين إيلغازي ، رحمه الله بعد أيام ، فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه ، فجنثته فإذا عنده رجل من الافرنج ، فقال : « هذا الفارس قد جاء من افسامية يريد أن يبصر الفارس الذي طعن فليب الفارس ، فإن الافرنج تعجبوا من تلك الطعنة وانها خرقت الزردية من طابقتين وسلم الفارس » ، قلت : « كيف سلم ؟ » قال ذلك الفارس الافرنجي : « جاءت الطعنة في جلدة خاصرته » ، قلت : « نعم الأجل حصن حصين » ، وما ظننته يسلم من تلك الطعنة ، قلت : يجب على من وصل إلى الطعن أن يشد يده وذراعه على الرمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمل في الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح أو مدها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية .

وشاهدت فارسا من رجالنا يقال له عدي بن تليل القشيري ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والافرنج وهو معري ما عليه غير ثوبين ، فطعنه فارس من الافرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه ، فرجع في صدره وما نظنه يصل منزله حيا ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه ،

لكنه لبث سنة اذا نام على ظهره لا يقدر يجلس إن لم يجلسه انسان
بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما
كان .

قلت فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت ، وهو حي
لا يموت بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير (٤٦) .

كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون
من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جالوسه على
ثوب بين يديه ، كانت فيه ابرة ، دخلت في راحته فمات منها ، وبالله
لقد كان يئن في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهازة
صوته ، يموت من ابرة ، وهذا القشيري يدخل في صدره قنطارية
تخرج من جذبه لا يصيبه شيء .

نزل علينا صاحب أنطاكية ، لعنه الله ، بفارسه وراجله وخيامه
في بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلونا ، فجاءوا
نزلوا منزلا كانوا ينزلونه ، وهجعوا في خيامهم ، فرجعنا نحن إلى
آخر النهار ، ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلونا ، فما ركبوا من
خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة يحيى غلة قد نجزت وهي بالقرب من
الافرنج ، فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة يحملها ، فسرنا معه في
عشرين فارسا معدين ، وقفنا بينه وبين الافرنج ، إلى أن حمل الغلة
ومضى ، فعدلت أنا ورجل من مولدينا يقال له حسام الدولة مسافر ،
رحمه الله ، إلى كرم رأينا فيه شخوصا ، وهم على شط النهر ،
فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها ، والشمس على مغيبها ، فآذا
شيخ عليه معرقة امرأة ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة وكان ،
رحمه الله ، رجلا جيدا كثير المزاح : « يا شيخ ، أي شيء تعمل
هاهنا ؟ » قال : « انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء
الكفار » ، قال : « يا شيخ ، بأسناذك تقطع عن خيلهم ؟ » قال :

« لا ، بهذه السكين » . وجذب سكيننا من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل ، فتركناه وانصرفنا .

وأصبحت من بكرة ركبت انتظر ما يكون من الافرنج ، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقد جمد ، قلت : « يهذك السلامة ، أي شيء عملت ؟ » قال : « أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا ، ولحقني راجل ، وأنا خارج من عسكريهم ، طعنني نفذ القنطارية في فخذي ، وسبقت بالحصان والفرس والرمح » - وهو مستقل بالطعنة التي فيه كأنها في سواه ، وهذا الرجل يقال له الزمر كل من شياطين اللصوص حدثني عنه الامير معين الدين ، رحمه الله ، قال : « أغرت زمان مقامي بجمص على شيزر ، وعدت آخر النهار نزلت على ضيعة من بلد حماه ، وأنا عدو لصاحب حماه ، قال : فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكره فقبضوه وجأؤوني به ، فقلت : يا شيخ ايش انت ؟ قال : « يامولاي ، أنا رجل صعلوك شيخ زمن ، وأخرج يده وهي زمنة ، قد أخذني العسكر عنزين جئت خلفهم لعل ان يتصدقوا علي بهما ، فقلت لقوم من الجندارية : « احفظوه إلى غد ، فاجلسوه بينهم وجلسوا على أكمام فروة عليه . فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار ، فعدوا في اثره ، سبقهم ومضى ، قال : وكنت قد نفذت بعض أصحابي في شغل فلما عادوا وفيهم جندار يقال له شومان قد كان يسكن بشيزر ، فحدثته حديث الشيخ ، قال : « واحسرتي عليه ! لو كنت لحقته كنت شربت دمه ، هذا الزمر كل » ، قلت : « فأني شيء بينك وبينه ؟ » قال : نزل عسكري الافرنج على شيزر فخرجت أدور به لعل أسرق حصانا منهم ، فلما أظلم الظلام مشيت الى طوالة خيل بين يدي وإذا هذا جالس بين يدي ، فقال لي : إلى أين ؟ قلت : أخذ حصانا من هذه الطوالة ، قال : وأنا من العشاء انظرها حتى تأخذ أنت الحصان ! قلت : لاتهذ ، قال : لا تغتر ، والله ، ما أدعك تأخذ شيئاً ، فما التفت إلى قوله ويممت إلى الطوالة ، فقام وصاح بأعلى صوته : وافقري ، واخيبة تعبني وسهري ، وصيح حتى خرج علي الافرنج ، فاما هو فطار ،

فطردوني حتى رميت نفسي في النهر ، وما ظننت أنني اسلم منهم .
ولو لحقته كنت شربت دمه ، وهو لص عظيم ، وما تبع العسكر الا
يسرق منه » .

فكان هذا الرجل يقول من يراه « ما في هذا يسرق رغيف خبز
من بيته » .

ومن عجيب ما اتفق في السرقة ان رجلا كان بخدمتي يقال له علي
ابن الدودويه من أهل بتكين ، نزل يوما الافرنج ، لعنهم الله ، على
كفرطاب (٤٧) وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ،
رحمه الله ، فخرج هذا علي بن الدودويه دار بهم وأخذ حصانا ركبه
وخرج به من العسكر يركض ، وهو يسمع الحس خلفه ويعتقد أن
بعضهم قد ركب في طلبه ، وهو مجد في الركض والحس خلفه حتى
ركض قدر فرسخين والحس معه . فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام ،
واذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقودها وتبعته . فوقف
حتى شد فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماة بالحصان
والبغلة ، وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها .

كنت يوما عند أتابك وهو يحاصر رمنية (٤٨) وقد استدعاني فقال
لي : « يا فلان ، أي شيء من حصانك الذي خبيته ؟ » وكان قد بلغه
خبر الحصان ، قلت « لا ، والله يامولاي ، ما لي حصان مخبى ،
حصني كلها في العسكر » ، قال : فالحصان الافرنجي ؟ « قلت :
« حاضر » ، قال : « أنفذ احضره » ، فأنفذت أحضرته وقلت
للغلام : « امض به الى الاصطبل » ، قال أتابك : « اتركه الساعة
عندك » ، ثم أصبح سبق ، فسبق ، ورده الى اصطبلي . وعاد
استدعاه من البلد وسبق به فسبق ، فحملته الى اصطبله .

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة ، كان عندنا رجل من الجند
يقال له رافع الكلابي ، وهو فارس مشهور ، اقتتلنا نحن وبذو
قراجا وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم ، وحشدوا وباسطناهم

على فسحة من البلد ، ثم تكاثروا علينا فرجعنا وبعضنا يحمي بعضا ، وهذا رافع في من يحمي الأعقاب ، وهو لابس كزاغند (٤٩) وعلى رأسه خونة بلا لثام ، فالتفت لعله يرى فيهم فرصة فينحرف عليهم ، فضربه سهم كسماء (٥٠) في حلقه ذبحه ، ووقع مكانه ميتا .

وكذلك شاهدت شهاب الدين محمود بن قراجا ، وقد انصلح ما بيننا وبينه ، وقد نفذ إلى عمي يقول له : « تأمر أسامة يلقاني هو وفارس واحد إلى كفرع (٥١) لنمضي نبصر موضعا نكمن فيه لأفامية ونقاتلها » ، فأمرني عمي بذلك : فركبت ولقيته وأبصرنا الموضع .

ثم اجتمع عسكرينا وعسكريه ، وأنا على عسكري شيزر وهو في عسكريه ، وسرنا إلى أفامية ، فلقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها ، وهو مكان لا تتصرف فيه الخيل من الحجارة والاعمدة واصل الحيطان الخراب ، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان ، فقال لي رجل من جنودنا : « تريد تكسرهم ؟ » قلت : « نعم » ، قال : « اقصد بنا باب الحصن » ، فأراد ان يرديني عن ذلك ، فأبيت وقصدت الباب .

فساعة مارنا الفرنج قاصدين الباب عاد إلينا فارسهم وراجلهم فدا سونا وجازوا ، وترجل الفرسان داخل باب الحصن واطلعوا خيلهم الى الحصن وصدفوا عوالي قنطارياتهم في الباب ، وأنا وصاحب لي من مولدي أبي ، رحمه الله ، اسمه رافع بن سوتكين وقوف تحت السور مقابل الباب وعلينا شيء كثير من الحجارة والنشاب ، وشهاب الدين واقف في موكب بعيد منهم على جوبة الاكراد (٥٢) ، فقد طعن صاحب لنا يقال له حارثة النميري نسيب جمعة في صدر فرسه طعنة معترضة ، ونزلت القنطارية في الفرس فتخبطت حتى وقعت القنطارية منها ووقعت جلدة صدرها جميعها ، فبقيت مسبلة على أعضائها .

وشهاب الدين بمعزل عن القتال ، فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة ، فجاءني رسوله يقول : « لاتزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد ، فأنا قد جرحت ، وكأني أحس الجرح في قلبي ، وأنا راجع فاحفظ انت الناس » ، ومضى ورجعت أنا بالناس نزلت على برج خريبة ، وكان الافرنج لهم عليه ديد بان يكشفنا إذا أردنا الغارة على أفامية .

ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين في دار والذي يريد يحل جرحه ويداويه ، وعمي قد منعه وقال : « والله ، ما تحل جرحك إلا في دارك » ، قال : « أنا في دار والذي » - يعني الوالد ، رحمه الله - قال : « إنن إذا وصلت دارك وبرا جرحك دار والدك بحكمك » .

فركب المغرب وسار الى حماة . فاقام الغد وبعد الغد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات ، وما كان به إلا فراغ الأجل . (٥٣)

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الافرنج ، خذلهم الله ، فارسا من أجنادنا يقال له تايه بن قنيب كلابي قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار ، وثلاثة أضلاع من جانبه الايمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ، ومات لساعته .

وطعن رجل من أجنادنا كردي يقال له مياح فارسا من الافرنج أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله ، ثم إن الافرنج غاروا علينا بعد أيام ومياح قد تزوج وخرج ، وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس ، قد تشهر به ، فطعنه فارس من الافرنج فقتله ، رحمه الله . « ياقرب مأتمه من العرس ! »

فذكرت به الخبر عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقد أنشد قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا

كأن يدي بالسيف مخراق لاعب (٥٤)

فقال النبي صلى الله عليه للحاضرين من الانصار ، رضي الله عنهم : « هل حضر أحد منكم يوم الحديقة ؟ » (٥٥) فقال رجل منهم : « أنا حضرته ، يارسول الله ، صلى الله عليك وسلم ، وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء ، فوالذي بعثك بالحق لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه »

ومن عجائب الطعن ان رجلا من الاكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي ، رحمه الله ، إلى أصبهان إلى دركاه السلطان ملكشاه فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد ، فقال له عمي عز الدين ، رحمه الله : « يا حمدات ، قد كبرت وضعفت ، ولك علينا حق وخدمة ، فلو لزمنا مسجداك - وكان له مسجد على باب داره - وأثبتنا أولادك في الديوان ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق وأنت في مسجداك » ، قال : « أفعل يا أمير » ، فأجري له ذلك مديدة.

ثم جاء إلى عمي وقال : « يا أمير ، والله ، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت ، وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي » قال : « الأمر لك » ، وأمر برد ديوانه عليه كما كان .

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني (٥٦) صاحب طرابلس ، ففزع الناس إليهم ، وحمدات في جملة الروع ، فوقف على رفعة من الارض مستقبلا القبلة ، فحمل عليه فارس من الافرنج من غربية ، فصاح إليه بعض أصحابنا : « يا حمدات ! » ، فالتفت رأى الفارس قاصده ، فرد رأس فرسه شمالا ومسك رمحه بيده وسدده الى صدر الافرنجي ، فطعنه نفذ الرمح منه ، فراجع الافرنجي متعلقا برقبة حصانه في آخر رمقه ، فلما انقضى القتال قال

حمدات لعمي : « يا أمير، لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هذه الطعنة ؟ »

فأذكرني قول الفند الزماني (٥٧)

أيا طعنة ما شيخ
كبير يفن بالسي
تفتيت بها إذكـ
ـره الشكة أمثالي

وكان الفند قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مقتربين فرماهما جميعا

وقد كان جرى لنا مثل ذلك : وهو أن فلاحا من العلاء جاء يركض إلى أبي وعمي ، رحمهما الله ، قال : « شاهدت سرية أفرنج تائهيـن قد جاؤوا من البرية ، لو خرجتم إليهم أخذتموهم » ، فركب أبي وعمامي وخرجوا بالعسكر إلى السرية التائهة وإذا به السرداني صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي ، وهم رماة الافرنج ، فلما راوا أصحابنا ركبوا خيلهم واطلقوا على أصحابنا هزموهم ، وتموا يطردونهم ، فأحرف عليهم مملوك لوالدي يقال له ياقوت الطويل ، وأبي وعمي ، رحمهما الله ، يريانه ، فطعن فارسا منهم إلى جانبه فارس آخر ، وهما يتبعان أصحابنا ، فرمى الفارسين والفرسين .

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لا يزال فد فعل فعلة يجب تأديبه عليها ، فكلما هم والدي به وبتأديبه يقول عمي : « يا أخي ، بحياتك هب لي نذبه ولا تنس له تلك الطعنة » ، فيصفح عنه لكلام أخيه .

وكان حمدات الذي تقدم ذكره ظريف الحديث . حدثني والدي ،

رحمه الله ، قال : « قلت لحمدات ونحن سائرون في طريق اصبيهان
سحرا ، » أمير حمدات ، أكلت اليوم شيئا ؟ ، قال : نعم يا أمير ،
أكلت ثريدة .

قلت : « ركبنا في الليل وما نزلنا ولا أوقدنا نارا ، من أين لك
الثريدة ؟ قال : « يا أمير عملتها في فهمي ، اخلط في فمي الخبز
واشرب عليه الماء يصير كالثريدة » .

وكان الوالد ، رحمه الله ، كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنه جراح
هائلة ، ومات على فراشه ، وحضر يوما القتال وهو لا لبس وعليه
خوذة اسلامية بأنف فزرقه رجل بحرية - وكان معظم قتالهم مع
العرب ذلك الزمان - فوقعت الحرب في أنف الخوذة فانطوى وأدمى
أنفه ولم يؤذه ، ولو كان قدر الله سبحانه أن يميل المزراق عن أنف
الخوذة كان أهلكه .

وضرب مرة أخرى بذشابة في ساقه ، وفي خفه دشني (٥٨) ، فدوقع
السهم في الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه ، هذا لحسن دفاع الله
تعالى . وشهد ، رحمه الله ، الحرب يوم الاحد تاسع وعشرين
شوال سنة سبع وتسعين وأربعمائة مع سيف الدولة خلف بن ملاعب
الاشهبي صاحب أفامية بأرض كفرطاب ، فلبس جوشنه ، وعجل
الغلام عن طرح كلاب الجوشن من الجانب ، فجاءه خشت (٥٩)
فضربه في ذلك الموضع الذي أدخل الغلام بستره فوق بزه الايسر خرج
الخشت من فوق بزه الايمن ، فكانت اسباب السلامة لما جرت بها
المشيئة من العجب ، والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب .

فطعن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارسا واحرف حصانه وثنى
يده برمحه وجذبه من المطعون ، فحدثني قال : « حسست شيئا قد
لدغ زندي ، فظننته من حرارة صفائح الجوشن ، إلا أن رمحي
سقط من يدي ، فرددتها فاذا قد طعنت في يدي وقد استرخت لقطع
شيء من الاعصاب » ، فحضرته ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي

يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف ، فقال : « يا زيد ، اخرج هذه الحصاة من الجرح » ، فما كلمه الجرائحي . فعاد فقال : « يا زيد ما تبصر هذه الحصاة ؟ ما تزيلها من الجرح ! » فلما اضجره قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » ، وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصاة من حصا الفرات .

وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرى وسلم الله حتى مات على فراشه ، رحمه الله ، يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمس مائة

وكان يكتب خطا مليحا ، فما غيرت تلك الطعنة من خطه ، وكان لا يذسخ سوى القرآن ، فسأله يوما فقلت : « يا مولاي كم كتبت ختمه ؟ » قال « الساعة تعلمون » ، فلما حضرته الوفاة قال : « في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمة ضعوها - يعني المساطر - تحت خدي في القبر » ، فعدناها فكانت ثلاثا وأربعين مسطرة .

فكان كتب بعدتها ختمات : منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب ، وكتب فيها علوم القرآن قراءاته وغريبه وعريبته وناسخه ومذسوخه وتفسيره ، وسبب نزوله وفقهه ، بالحبر والحمرة والزرق ، وترجمه بالتفسير الكبير ، وكتب ختمه أخرى بالذهب مجردة من التفسير ، وباقي الختمات بالحبر مذهبة الأعشار والأخماس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الاجزاء ، وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لاستدعي له الرحمة ممن وقف عليه .

أعود الى ما تقدم :

وفي ذلك اليوم أصاب غلاما كان لعمي عز الدولة أبي المرفف نصر ، رحمه الله ، يقال له موفق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، واتفق ان

عمي أرسله رسولا إلى الملك رضوان بن تاج الدولة تتش إلى حلب ، فلما حضر بين يديه قال لغلمانه : « مثل هذا يكون الغلمان وأولاد الحلال في حق مواليتهم » ، وقال لشمعون : « حدثهم حديثك أيام والدي وما فعلته مع مولاك » ، فقال : « يامولانا ، بالامس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه فارس يطعنه ، فدخلت بينه وبين مولاي لافديه بذنسي فطعنني قسطع من اضلاعي ضلعين وهي - ونعمتك - عندي في قمطرة » فقال له الملك رضوان « والله ما أعطيك الجواب حتى تذفذ تحضر القمطرة والاضلاع » .

فأقام عنده وأرسل من أحضر القمطرة وفيها عظامان من أضلاعه ، فعجب رضوان من ذلك ، وقال لأصحابه : « كذا عملوا في خدمتي »

فاما الامر الذي سأله عنه أيام والده تاج الدولة فإن جدي سيد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن مذقذ ، رحمه الله ، سير ولده عز الدولة نصرا ، رحمه الله ، الى خدمة تاج الدولة ، وهو معسكر بظاهر حلب ، فقبض عليه واعتقله ووكل به من يحفظه ، وكان لا يدخل إليه سوى مملوكه هذا شمعون والموكلون حول الخيمة ، فكتب عمي إلى أبيه ، رحمهما الله ، يقول : « تذفذي في الليلة الفلانية - وعينها - قوما من أصحابه - ذكرهم - وخيلا اركبها إلى الموضع الفلاني » ، فلما كانت تلك الليلة دخل شمعون خلع ثيابه فلبسها مولاة وخرج على الموكلين في الليل ، فما انكروه ، ومضى إلى أصحابه وركب وسار ، ونام شمعون في فراشه .

وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان ، رحمه الله ، من الزهاد القائمين ليلهم يتلون كتاب الله تعالى ، فلما أصبحوا ولم يروا شمعون دخل كعباته دخلوا الخيمة فوجدوا شمعون وعز الدولة قد راح ، فأنهوا ذلك إلى تاج الدولة فأمروا بإحضاره ، فلما حضر بين يديه قال : « كيف عملت ؟ » قال :

« أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح ، ونمت أنا في فراشه » ، قال :
« وما خشيت أن أضرب رقبتك ؟ » قال : « يامولاي ، إذا ضربت
رقبتي وسلم مولاي وعاد إلى بيته فانا السعيد بذلك . وما اشتراني
ورباني إلا لأفديه بنفسي » .

فقال تاج الدولة ، رحمه الله ، لحاجبه : « سلم إلى هذا الغلام
خيل مولاه » ودوابه وخيامه وجميع بركه ، وسيره يتبع صاحبه
« وما أنكر عليه وما احذقه ما فعل في خدمة مولاه ، فهذا الذي قال له
رضوان : « حدث اصحابي ما عمله أيام والذي مع مولاك » .

أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكرها مع ابن ملاعب

وجرح عمي عز الدولة ، رحمه الله ، في ذلك اليوم عدة جراح ،
منها : طعنة طعنها في جفن عينه السفلا من ناحية المآق ، ونشب
الرمح في المآق عند مؤخر العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقا
بجلده من مؤخر العين ، والعين تلعب لاتستقر ، وإنما الجفون التي
تمسك العين ، فخطأها الجرائحي وداواها فعادت كحالها الاولة
لاتعرف العين المطعونة من الأخرى

وكانا ، رحمهما الله ، من اشجع قومهما . ولقد شهدتهما يوما
وقد خرجا الى الصيد بالبراة نحو تل ملح (٦٠) وهناك طير ماء
كثير ، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا
عليه ، فرجعنا وكان الوالد (أبل) من أثر مرض ، فاما عمي فخفف
بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض إلى الافرنج ، وهم
يرونه ، وأما الوالد فسار والحصان يخب به ، وأنا معه صبي وفي
يده سفرجلة يمتص منها ، فلما دنونا من الافرنج قال لي : « امض
أنت ادخل من السكر » وعبر هو من ناحية الافرنج .

ومرة أخرى شاهدته وقد اغارت علينا خيل محمود بن قسراجا ،

ونحن على فسحة من البلد وخيل محمود أقرب إليه منا ، وأنا قد حضرت القتال ومارست الحرب ، فلبست كزاغندي وركبت حصاني وأخذت رمحي ، وهو ، رحمه الله ، على بغلة ، فقلت : « يامولاي ما تركب حصانك ! » قال : « بلى » وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل ، وأنا لخوفي عليه ألح في ركوبه حصانه ، إلى أن وصلنا إلى البلد ، وهو على بغلته ، فلمسا عاد أولئك وأمنا قلت : « يامولاي ، ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع ! » قال : « يا ولدي ، في طالعي أنني لا أرتاع » .

وكان ، رحمه الله ، له اليد الطولى في النجوم مع ورعه وبينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن ، وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فأبى وامتنع ، فيقول : « فاعرف أسماء النجوم ، ما يطلع منها ويغرب » ، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها .

ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنا أصبحنا وقت صلاة الصبح رأينا سرية من الافرنج ، نحو من عشرة فوارس ، جاؤوا إلى باب المدينة قبل ما يفتح . فقالوا للبواب : « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » والباب خشب بينهما عوارض ، وهو داخل الباب ، قال : « شيزر » ، فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم ، فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معه ، والافرنج رائجون غير منزعجين ، ولحقنا من الجند نفر ، فقلت لعمي : « عن أمرك أخذ أصحابنا واتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين » ، قال : « لا » ، وكان أخبر مني بالحرب ، في الشام أفرنجي لا يعرف شيزر ؟ هذه مكيدة » .

ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال : امضيا اكشفا تل ملح ، وكان مكنا للافرنج ، فلما شارفاه خرج عليهما عسكر أنطاكية جميعه فاستقبلنا متسرعيهم نريد الفرصة فيهم قبل ركود الحرب ، ومعنا جمعة الذميري وابنه محمود ، وجمعة فارسنا

وشبخنا ، فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعة : « يا فرسان الخيل ولدي » ، فرجعنا معه في ستة عشر فارسا طعنا ستة عشر فارسا من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم ، واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس ابن جمعة تحت ابطه ، فخلص ببعض تلك الطعنات .

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب باقدامه ، فوالله لقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، أغرنا على أفامية ، واتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة فسيروها ، وعادوا ، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلا ، ورأيت جمعة النميري ، رحمه الله ، وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البداد إلى فخذه ، ونفذ إلى خلفه ، فانكسرت القنطارية فيه ، فراعني ذلك ، فقال : « لا بأس ، أنا سالم » .

ومسك سنان القنطارية وجذبها منه ، وهو وفرسه سالمان . فقلت : « يا أبا محمود ، اشتهي اتقرب من الحصن أبصره » قال : « سر » ، فرحت أنا وهو نخب فرسينا ، فلما أشرقنا على الحصن إذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق ، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا ينزل منه إلا من ذلك الطريق ، فقال لي جمعة : « قف حتى أريك ما أصنع فيهم » ، قلت : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم أنا وأنت » ، قال : « سر » . فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى أنا قد فعلنا شيئا ما يقدر يفعلنه غيرنا ، نحن اثنان قد هزمننا ثمانية فرسان من الافرنج

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن ، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قدوس ونشاب ، فرمانا ، ولا سبيل لنا إليه فهزمننا ، والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة ، ورجعنا بخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم ، وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي

هزمنا حسرة « الي » ما كان لنا إليه سبيل ، وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

وشهدت يوما وقد أغارت علينا خيل كفرطاب في قلة ففزعنا اليهم طامعين فيهم لقلتهم ، وقد كمنوا لنا كمينا في جماعة منهم ، وانهمزم الذين اغاروا فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد ، فخرج إلينا الكمين ورجع إلينا الذين كنا نطردهم ، فرأينا أننا إن إنهمزنا قلعونا كلنا ، فالتقيناهم مستدقطين فنصر الله عليهم ، فقلعنا منهم ثمانية عشر فارسا : منهم من طعن فمات ، ومنهم من طعن فوق وقع وهو سالم ، ومنهم من طعن حصانه فهو راجل .

فجذب الذين في الارض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا كل من اجتاز بهم ضربه ، فاجتاز جمعة النميري ، رحمه الله ، بواحد منهم فخطأ إليه وضربه على رأسه ، وعلى رأسه قلنسوة ، فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح ، وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة ، فلقيته ونحن في ما نحن فيه من الافرنج فقلت له : « يا أبا محمود ، ما تعصب جرحك » فقال : « ما هذا وقت العصائب وشدة الجراح » ، وكان لا يزال على وجهه خرقه سوداء وهو رمد وفي عينه عروق حمراء ، فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكو من عينيه ، ولم يعد يناله منهما رمد ولا ألم فربما صحت الاجسام بالعلل (٦١)

وأما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا ووقفوا مقابلنا ، فجاءني ابن عمي نخيرة الدولة أبو القنا خطام ، رحمه الله ، فقال : « يا ابن عمي ، معك جنيتان وأنا على هذا الفرس الحطم » ، قلت للغلام : « قدم له الحصان الاحمر » ، فقدمه له ، فساعة ما استوى في سرجه حمل على الافرنج وحده فافرجوا له حتى توسطهم وطعنوه رموه ، وطعنوا الحصان واقلبوا قنطارياتهم ، وصاروا يركشونه بها ، وعليه زربية حصينة ما تعمل

رماحهم فيها ، فتصايحنا : « صاحبكم ، صاحبكم » ، وحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم ، وأما الحصان فمات في يومه ، فسبحان المسلم القادر

وتلك الواقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه ، فسبحان القائل : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (٦٢)

وقد جرى لي مثل ذلك ، كنت بالجزيرة في عسكر أتابك فدعاني صديق لي إلى داره ومعى ركابي اسمه غنيم قد استسقى ودقت رقبته وكبر جوفه وقد تغرب معى ، فأنا أرعى له ذلك ، فدخل بالبغلة إلى اصطبل ذلك الصديق هو وغلمان الحاضرين ، وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر ، فخرج إلى الاصطبل جذب سكينه وهجم على الغلمان ، فانهزموا وخرجوا . وغنيم لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت رأسه ونام ، فما قام حتى خرج كل من فى الاصطبل ، فضر به ذلك السكران بالسكين تحت سرتيه فشق من جوفه قدر أربع أصابع ، فوقع موضعه . فحمله الذي دعانا ، وهو صاحب قلعة باشزى (٦٣) إلى دارى ، وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه إلى دارى ، فاطلقته ، وتردد إليه الجرائحي فصلح ومشى وتصرف ، إلا أن الجرح ما ختم ، ومازال يخرج منه مثل القشور وماء اصفر مدة شهرين ، ثم ختم وضمر جوفه وعاد إلى الصحة ، فكان ذلك الجرح سببا لعافيته .

ورأيت يوما البازدار قد وقف بين يدي والدي ، رحمه الله ، وقال : « يامولاي ، هذا الباز قد لحقه حص (٦٤) وهو يموت ، وعينه الواحدة قد تلفت ، فتصيد به ، فهو باز شاطر وهو تالف » ، فخرجنا إلى الصيد وكان معه ، رحمه الله ، عدة بزا . فرمى ذلك الباز على دراجة وكان يهجم في النبع (٦٥) . فنبتحت الدراجة في اجمة حلفاء وبخل الباز معها ، وقد صار على عينه كالنقطة الكبيرة ، فضربته شوكة من الحلفاء في تلك النقطة ففقتها ، فجاء به البازدار ، وعينه قد سالت وهي مطبوقة ، فقال : « يامولاي ، تلفت

عين الباز » ، فقال : « كله تالف » ثم من الغد فتح عينه وهي سالمة ، وسلم ذلك الباز عندنا حتى قرنص قرناصين فكان من أشطر البزاة .

ذكرته بما جرى لجمعة وغنيم وإن لم يكن موضع ذكر البزاة ورأيت من استسقى وفصدوا جوفه فمات ، وغنيم شق ذلك السكران جوفه سلم وعوفي ، فسبحان القادر .

وأغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا وأئلهم وجاءوا قدامهم ، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إلي لعلني أنال منهم فرصة ، وأصحابنا يعبرون علي منهزمين ، فعبر علي في من عبر محمود بن جمعة ، فقلت : « قف يا محمود » ، فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضى عني ، ووصلني أوائل خيلهم ، فاندفعت بين أيديهم وأنا راد رمحي اليهم ملثفت أنظرهم لا يتسرع إلي منهم فارس يطعنني ، وبين يدي جماعة من أصحابنا ، ونحن بين بساتين لها حيطان طول قعدة الرجل ، فندس(٦٦) فرسي بصدورها رجل(رجل) من أصحابنا ، فرددت رأس فرسي على يساري ، فضربت بها بالمهاميز ففزت الحائط ، فضبطت حتى صرت أنا والافرنج مصطفيين وبيننا الحائط ، فتسرع منهم فارس عليه تشهير حرير أخضر وأصفر ، فظننت أن ما تحته درع ، فتركته حتى تجاوزني وضربت الفرس بالمهاميز ، ففزت الحائط ، وطعنته ، فمال إلى أن وصل رأسه ركابه ووقع ترسه والرمح من يده والخونة عن رأسه ، ونحن قد وصلنا إلى رجالنا ، ثم عاد انتصب في سرجه وكان عليه زربية تحت التشهير .

فما جرحته الطعنة ، وأدركه أصحابه ثم عادوا ، وأخذ الرجالة الترس والرمح والخونة .

فلما انقضى القتال ورجع الافرنج جاءني جمعة ، رحمه الله ، يعتذر عن ابنه محمود وقال : « هذا الكلب انهزم عنك » ، قلت : « وأي شيء يكون ؟ » قال : « ينهزم عنك ولا يكون شيء ؟ » قلت :

« وحياتك يا أبا محمود وانت تنهزم عني أيضا » ، قال : « يا شين والله إن موتي أسهل علي من أن انهزم عنك » ، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة فأخذوها لنا باقورة وحبسوها في جزيرة (٦٧) تحت الطاحون الجاللي .

وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة . فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي - مولد لنا - وكان رجلا شجاعا ، فقلت لهما : « نعبّر الماء ونأخذ الدواب » ، فعبرنا ، فأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبته فجازت فيها قدر شبر ، فوالله ما رمحت ولا قلقت ولا كأنها احسست بالجرح ، وأما جمعة فرجع خوفا على فرسه ، فلما عدنا قلت : « يا أبا محمود ، ما قلت لك إنك تنهزم عني وأنت تلوم ابذك محمودا ؟ » قال : « والله ما خفت إلا على الفرس . فانها تعز علي » واعتذر .

وقد كنا ذلك اليوم التقينا نحن وخيل حماة وقد سبقهم بعضهم بالباقورة إلى الجزيرة ، فاقتتلنا نحن وهم ، وفيهم فرسان عسكري حماة : سرهنك وغازي التلي ، ومحمود بن بلداجي وخضر الطوط واسباسلار خطلخ ، وهم أكثر عددا منا ، فحملنا عليهم ، فهزمناهم وقصدت فارسا منهم أريد أطعنه وإذا هو خضر الطوط ، فقال : « الصنيعة ، يا فلان ! » فعدلت عنه إلى آخر قطعته فوقع الرمح تحت ابطه ، فلو تركه ما كان وقع ، فشد عضده عليه يريد يأخذ الرمح والفرس مسندرة (٦٨) بي فطار في السرج على رقبة الحصان ، فوقع . ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر إلى الجاللي ، ف ضرب حصانه وساقه بين يديه ونزل ، وحمدت الله سبحانه الذي ما ناله ضرر من تلك الطعنة لأنه كان غازي التلي ، وكان رحمه الله ، رجلا جيدا .

ونزل علينا عسكري أنطاكية في بعض الايام منزلا كان ينزله كلما نزل علينا ، ونحن ركاب مقابلهم وبيننا النهر ، فلم يقصدنا منهم أحد ، وضربوا خيامهم ونزلوا فيها ، فرجعنا نحن نزلنا في دورنا ،

ونحن نراهم من الحصن ، فخرج من جندنا نحو من عشرين فارسا الى بندرقتين قرية بالقرب من البلد يرعون خيلهم ، وقد تركوا رماحهم في دورهم ، فخرج من الافرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم ، فصادقا رجلا ، وعلى الطريق يسوق بهيمة فأخذه وبهيمة ونحن نراهم من الحصن ، وركب أولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح ، فقال عمي : « هؤلاء عشرون لا يخلصون أسيرا مع فارسين ، لو حضرهم جمعة رأيتهم ما يعمل » ، هو يقول ذلك وجمعة لا بس يركض إليهم ، فقال عمي « أبصروا الساعة ما يعمل » .

فلما دنا من الفارسين وهو يركض كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة ، فلما رأى عمي توقفه عنهما ، وهو على روشن له في الحصن يراه ، دخل من الروشن مغضبا وقال : « هذا خذلان ! » ، وكان توقف جمعة خوفا من جورة كانت بين يدي الفارسين لا يكون لهم فيها كمين ، فلما وصل تلك الجورة وما فيها أحد حمل على الفارسين خلص الرجل والبهيمة وطردهما إلى الخيام .

وكان ابن بيموند صاحب انطاكية يرى ما جرى ، فلما وصل الفارسان أذعن أخذ ترسيهما جعلهما معالف الدواب ، ورمى خيمتهما وطردهما وقال : « فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الافرنج ، ما أنتم رجال ، أنتم نساء » .

واما جمعة فوبخه وحرد عليه لوقوفه عنهما أول ما وصلهما ، فقال : « يامولاي ، خفت يكون لهم في جورة رابية القرافطة كمين يخرج علي ، فلما كشفتها وما رأيت فيها أحدا استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى خلا عسكرهما » ، فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه .

والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، فهم اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم ، وقد

حاكمتهم مرة ، على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك : « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن اتلفها » ، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكما » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة ، فتوسل إلي ولعل (٦٩) علي ، وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار ، وهذا الحكم بعد أن تعقد الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم .

واقد قال لي الملك : « يا فلان ، وحق بيني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما » ، قلت : « والله يفرح الملك بماذا فرحت ؟ » قال : « قالوا لي انك فارس عظيم ، وما كنت اعتقد أنك فارس » ، قلت : « يامولاي ، أنا فارس من جنسي وقومي » ، وإذا كان الفارس دقيقا طويلا ، كان أعجب لهم .

وكان نزل علينا بذكري وهو أول اصحاب انطاكية بعد بيموند ، فقاتلنا ثم اصطلحنا ، فذقد حصانا لغلام لعمي عز الدين ، رحمه الله ، وكان فرسا جوادا ، فذفنه له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي يقال له حسنون ، وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ، ليس سابق بالحسان بين يدي بذكري ، فسابق به فسبق الخيل المجرة كلها ، وحضر بين يدي بذكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع فخلع عليه بذكري ، فقال له حسنون : « يامولاي ، أريدك تعطيني أماذك أنك ان ظفرت بي في القتال ، تصطنعني وتطلقني » ، فاعطاه أمانه ، على ما توهم حسنون ، فانهم لا يتكلمون إلا بالافرنجي ما ندري ما يقولون .

ومضى على هذا سنة أو أكثر وانقضت مدة الصلح ، وجاءنا
بذكرى في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وكانت خيلنا
لقت أوائلهم ، فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا
كردي ، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة ، وحسنون واقف مع
والدي ، رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من
عند البيطار ويأتيه كزاعنده ، فأبطأ عليه وأقلقه طعن كامل المشطوب
فقال لوالدي : « يامولاي ، أمر لي بلباس خفيف » ، فقال : « هذه
البغال عليها السلاح واقفة . مهما صلح لك البسة » ، وأنا إذ ذاك
واقف خلف والدي ، وأنا صبي وهو أول يوم رأيت فيه القتال ،
فنظر الكزاعندات في عيبيها على البغال فما وافقته ، وهو يغلي يريد
يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب ، فتقدم على حجرته ، وهو
معري ، فاعترضه فارس منهم ، فطعن الفرس في قطاتها (٧٠)
فعضت على فاس اللجام وحملت به حتى رمته في وسط موكب
الافرنج ، فاخذوه أسيرا وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه
اليسرى ، فقال لهم بذكرى ، لعنه الله : « اقلعوا عينه اليمين ، حتى
إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئا » ،
فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصانا أدهم
كان لوالدي من خيل خفاجة جوادا من أحسن الخيل ، فاشتراه
بالحصان ، رحمه الله .

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير ، فحمل عليهم
الافرنج فما زعزعوهم من مكانهم ، فحرد بذكرى وقال : « أنتم
فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء
سرچند - يعني رجالة - ما تدرون تقلعونهم من موضعهم! » قالوا :
« انما خوفا على الخيل ، وإلا دسناهم وطعنناهم » ، قال : « الخيل
لي ، من قتل حصانه اخافته عليه » ، فحملوا على الناس عدة
حملات ، فقتل منهم سبعون حصانا وما قدروا يزحزحونهم من
مواقفهم .

وكان بفامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا (٧١) ،

فكان ابدا يقول : « ترى ما التقى جمعة في القتال ؟ » ، وجمعة يقول : « ترى ما التقى بدرهوا في القتال ؟ » .

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله ، وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم ، وصاح بهم : « فيكم جمعة ؟ » قالوا : « لا » ، والله ما كان حاضرا فيهم ، وكان ذلك الفارس بدرهوا ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته : يحيى بن صافي الاعسر ، وسهل بن أبي غانم الكردي ، وحارثة النميري ، وفارس آخر .

فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحدا منهم طعنه فشلة مألحقه حصانه ليتمكن الطعن ، وعاد الى الخيام

ودخل اولئك الذفر الى البلد فافتضحوا ، واستخفهم الناس ولاموهم وأزروا بهم وقالوا : « أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ، كنتم افترقتم له فكان طعن واحدا منكم وكان الثلاثة قتلوه ، ولا قد افتضحتم » ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري فكان تلك الهزيمة منحتهم قلوبا غير قلوبهم ، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب ، وصاروا من الفرسان المعدودين ، بعد تلك الهزيمة .

وأما بدرهوا فانه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد انطاكية . فخرج عليه الأسد من غاب في الراج في طريقه فخطفه عن بغلته ودخل به الى الغاب أكله - لارحمه الله .

ومن اقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير : فمن ذلك ان اسباسلار مودود رحمه الله ، نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمسمائة وقد قصده دنكري صاحب انطاكية في جمع كثير ، فخرج اليه عمي والدي ، رحمهما

الله ، وقالوا: « الصواب ان ترحل - وكان نازلا شرقي البلد على النهر - وتنزل في البلد ، ويضرب العسكر خيامهم على الاسطوحات في المدينة ونلقى الأفرنج بعد أن نحرز خيامنا وأثقالنا » فرحل ونزل كما قال له ، واصبحا خرجا اليه ، وخرج من شيزر خمسة آلاف راجل معدين ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه .

وكان معه ، رحمه الله ، رجال جياذ ، فصافوا من قبلي الماء والأفرنج نزول شماليه ، فمنعوه من الشرب والورود نهارهم ، فلما كان الليل رحلوا راجعين الى بلادهم والناس حولهم ، فنزلوا على تل الترمسي (٧٢) فمنعوه من الورود كما عملوا بالأمس ، فـرحلوا في الليل ونزلوا على تـلل التلول (٧٣) والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير ، فاحتاطوا بالماء ومنعوه من الورود ، ورحلوا في الليل متوجهين الى أقمية ، ففزع اليهم العسكر واحتاطوا بهم وهم سائرون ، فخرج منهم فارس واحد فحمل على الناس حتى توسطهم ، فقتلوا حصانه ، وأخذوه بالجراح ، فقاتل وهو راجل حتى وصل الى اصحابه .

ودخل الأفرنج أرضهم وعاد المسلمون عنهم .

ومضى اسباسلار مودود ، رحمه الله ، الى دمشق ، فجاءنا بعد شهر كتاب يذكرني صاحب انطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول: « هذا فارس محدث من الأفرنج ، وصل حج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن اسيره اليكم يبصر فرسانكم ، وقد نفذته فاستوصوا به » ، وكان شابا حسن الصورة حسن اللباس ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفرقه الى حكمته (٧٤) ، فسألت عنه فقالوا : « هذا الذي حمل على عسكر اسباسلار مودود ، وقتلوا حصانه ، وقاتل حتى رجع الى اصحابه » ، فتعالى الله القادر على مايشاء كيف شاء لايؤخر الاجل الاحجام ولايقدمه الاقدام .

ومن ذلك ما حكاه لي العقاب الشاعر ، رجل من أجنادنا من المغرب ، قال : « خرج أبي من تدمر يريد سوق دمشق ومعه أربعة فوارس وأربعة رجاله وهم يسوقون ثمانية جمال ليبيعهوا ، قال : بينا نحن نسير اذا فارس مقبل من صدر البرية ، فجاء يسير حتى صار بالقرب منا ، فقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فاطلق حصانه علينا ، فطعن منا فارسا رماه عن فرسه وجرحه ، فطردناه فسبق ، ثم عاد إلينا وقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فحمل علينا ، فطعن رجلا منا اوذقه بالجرح وتبعناه فسبقنا ، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فأطلق علينا ، فاستقبله رجل منا ، فطعنه صاحبا فوقع الطعنة في قربوس سرجه فانكسر رمح صاحبا ، وطعنه الفارس فجرحه ، ثم حمل علينا فطعن رجلا منا فصرعه ، وقال : خلوا عن الجمال ، والا افنيتمكم ، قلنا : تعال خذوا نصفها ، قال : لا ، احبسوا منها أربعة اتركوها وقوفا وخذوا أربعة وامضوا ، ففعلنا وما صدقنا نخلص بما سلم معنا ، وساق هو تلك الأربعة ونحن نراه مالنا فيه حيلة ولا طمع ، وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال » .

ومن ذلك ان ذكرني صاحب أنطاكية أغار على شيزر ، فاستاق دواب كثيرة وقتل وسبى • ونزل على قرية يقال لها زلين فيها مغار معلقة لا يوصل إليها في وسط الجبل ، ما إليها من فوق منزل ولا إليها من أسفل مطلع ، إنما ينزل إليها من يحتمي فيها بالحبال ، وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وخمس مائة فجاء شيطان من فرسانهم الى ذكرني فقال : « اعمل لي صندوقا من خشب ، وأنا أقعد فيه ، ودلوني من الجبل اليهم بسلاسل أو ثقوها في الصندوق حتى لا يقطعوها بالسيف ، فاسقط » ، فعملوا له صندوقا ودلوه بالسلاسل المعلقة الى المغار ، فأخذها وأنزل كل من كان فيها الى ذكرني ، وذلك أن المغار بهو ما فيه مكان يستتر الناس فيه ، وذلك يرميهم بالنشاب فلا تقع نشابة الا في انسان لضيق الموضع وكثرة الناس فيه .

وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من اصل جيد من العرب ، وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، قبل ذلك وهي في بيت أبيه ، فأرسل عمي عجوزا من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها إما لرغبة بذلها لها وأما أروها غيرها ، فخطبها عمي وتزوجها ، فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها ، ثم هي خرساء ، فوفاها مهرها وردا الى قومها ، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم ، فقال عمي : « ما ادع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الأفرنج » ، فاشتراها ، رحمه الله ، بخمس مائة دينار وسلمها الى أهلها .

ومن ذلك ما حدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمس مائة قال : « أقطع الخليفة والذي ضيعة وهو يتردد اليها ، وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق ، والذي يصانعهم لخوفه منهم ولانتقاعه بشيء مما يأخذونه ، فنحن يوما جلوس بها أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجاريه راكبة فوق الخرج ، فنزل وأنزل الجارية فقال : يا فتيان ، اسعدوني على حط الخرج ، فجننا حططنا معه ، واذا به كله دنانير ذهب ومصاغ ، فجلوس هو والجارية أكلنا شيئا ثم قال : « اسعدوني على رفع الخرج » فرفعناه معه ، فقال لنا : كيف طريق الأنبار ؟ فقال له والذي : الطريق هاهنا - وأشار الى الطريق - ولكن في الطريق ستون عيارا أخاف عليك منهم ، فضرط له وقال : « أنا أخاف من العيارين ! »

فتفركه والذي ومضى الى العيارين أخبرهم خبره ومامعه ، فخرجوا حتى عارضوه في الطريق ، فلما رأهم أخرج قوسه وترك فيه سهمين واسدوفاه يريد يرميهم ، فاندقطع الوتر ، فهاجم عليه العيارين ، فانهزم ، واخذوا البغل والجارية والخرج ، فقالت لهم الجارية : يا شباب ، بالله لا تهتكوني ، ويبيعوني نفسي والبغل ايضا بعقد جوهر مع التركي

قيمته خمس مائة دينار ، وخذوا الخرج ومافيه ، قالوا : « قد فعلنا » قالت ابعثوا معي بعضكم حتى أتحدث مع التركي وأخذ العقد، فبعثوا معها من يحفظها حتى دنت من التركي وقالت له : قد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في ساق موزك خفك اليسار • فادفعه لي ، قال : نعم » وانفسح عنهم وأخرج الساق (٧٥) موزا وإذا فيه وترقوس ، فركبه على قوسه ورجع اليهم ، فما زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحدا واحدا حتى قتل ثلاثة وأربعين رجلا ، ونظر فاذا والذي في الجماعة الباقين من العيارين فقال : « وأنت فيهم » فتشبهت بهي أعطيك نصيبك من الذشاب ؟ » قال « لا » ، قال : خذ هؤلاء السبعة عشر الباقين امض بهم الى شحنة البلد يشنقهم واولئك قد زهروا ورموا سلاحهم ، وساق بغله بما عليه ومضى ، وقد ارسل الله تعالى على العيارين منه مصيبة وسخطة عظيمة »

ومن ذلك ما حضرته في سنة تسع وخمس مائة وقد خرج والدي ، رحمه الله ، بالعسكر الى اسباسلار برسق بن برسق ، رحمه الله ، وقد وصل بأمر السلطان إلى الغزاة ، وهو في خلق عظيم وجماعة من الأمراء : منهم أمير الجيوش اوزبه صاحب الموصل ، وسنقر دراز صاحب الرحبة ، والأمير كند غدي ، والحاجب الكبير بكتمر ، وزنكي بن برسق وكان من الأبطال ، وتميرك ، واسماعيل البسكجي ، وغيرهم من الأمراء فنزلوا على كفر طاب وفيها أخو ثيوفل والأفرنج ، فقاتلوا ، ودخلوا الخراسانية في الخندق ينقبون ، والأفرنج قد ايقنوا بالهلاك ، فطرحوا النار في الحصن فأحرقوا السقوف ووقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى ، فاحترق الجميع ، وبقي الأفرنج معلقين في اعلاه على الحيطان .

فوقع لي أن أدخل في النقيب أبصره ، فنزلت في الخندق ، والذشاب والحجار مثل المطر علينا ، ودخلت

النقب ، فرأيت حكمه عظيمة : قد نقيوا من الخندق الى الباشورة وأقاموا في جوانب النقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع من تهدم ما فوقها ، ونظموا النقب بالأخشاب كذلك الى اساس البرج ، والنقب ضيق ، إنما هو طريق الى البرج ، فلما وصلوه وسعوا النقب في حائط البرج وحملوه على الأخشاب ، ويخرجون نقارة الأحجار اولا فأولا ، وأرض النقب من النقش قد صارت طينا ، فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخراسانية ، ولو عرفوني ماتركوني اخرج الا بغرامة كثيرة لهم .

وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا النقب بذلك الخشب ، وأصبحوا طرحوا فيه النار ، وقد لبسنا وزحفنا الى الخندق لنهجم الحصن اذا وقع البرج ، علينا من الحجارة والنشاب بلاء عظيم ، فاول ما عملت النار صار يسقط ما بين الاحجار من تكحيل الكلاس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج ، ونحن نظن انه اذا وقع تمكنا من الدخول عليهم ، فوقع لوجه البراني وبقي الحائط الجواني كما هو ، فوقفنا الى أن حميت علينا الشمس ورجعنا الى خيامنا ، وقد نالنا من الحجارة أذى كبيرا .

فمكثنا الى الظهر ، واذا قد خرج من العسكر راجل واحد معه سيفه وترسه فمضى الى حائط البرج الذي قد وقع ، وقد صارت جوانبه كدرج السلم ، فتوقل فيه حتى صعد الى أعلاه ، فلما راه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرعوا بعدتهم فصعدوا واحدا وراء واحد حتى صاروا على البرج والأفرنج لا يشعرون بهم ، ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا ، فكثروا على البرج قبل ان يتكامل الناس عندهم .

ففزع اليهم الأفرنج فرموهم بالنشاب ، فجرحوا الذي طلع في الأول ، فنزل وتتابع الناس في الطلوع ، وصاروا مع الأفرنج على بدن من حيطان البرج ، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعه

ترسه وقنطاريته يحمي من دخول البرج ، وعلى البرج جماعة من الأفرنج يقاتلون الناس بالذشاب والحجارة ، فصعد رجل من الأتراك ، ونحن نراه ، ومشى والبلاء يأخذه الى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة نפט ، فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة البهم وقد رموا نفوسهم الى الأرض خوفا من الحريق ، ثم عاد .

وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس ، فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زريتان وبيده قنطارية وما معه ترس ، فلقىه التركي وفي يده سيفه ، فـطعنه الأفرنجي ، فدفع سنان القنطارية عنه الترس ومشى الى الأفرنجي وقد دخل ، على الرمح ، إليه فولى عنه وأدار ظهره وأمال ظهره كالراكع خوفا على رأسه ، فضربه التركي ضربات ماعملت فيه شيئا ، ومشى حتى دخل البرج وقوي عليهم الناس وتكاثروا فسلموا الحصن ونزل الأسارى الى خيام برسق بن برسق .

فشاهدت ذلك الذي خرج بقنطاريته على التركي وقد جمعـوهم في سرادق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمنا يخلصون به ، فـوقف وكان سرجنديا وقال: « كم تـأخذون مني؟ » قالوا: « نريد ستمائة دينار » ، فـضـرط لهم وقال: « أنا سرجندي ، ديواني كل شهر ديناران من اين لي سـتمائة دينار؟ » وعاد جلس بين أصحابه ، وكان خـلقه عظيمة ، فقال الأمير السيد الشريف وكان من كبار الأمراء ، لوالدي رحمه الله: « يا أخي ترى هؤلاء القوم ؟ نعوذ بالله منهم » .

فقضى الله سبحانه ان العسكر رحل عن كفر طاب الى دانيث وصبحهم عسكر أنطاكية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر وكان تسليم كفر طاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر فقتل الأمير السيد ، رحمه الله ، وخلق كثير من المسلمين .

وعاد الوالد ، رحمه الله ، وكنت فارقتـه من كفر طاب وقد كسر

العسكر ، ونحن في كفر طاب نحـرزها نريد نعمـرها ، وكان اسباسلار سلمها الينا ، ونحن نخرج الأسارى كل اثنين في قيد من أهل شيزر وقد احترق نصفنا وقد بقيت فخذة ، وذا قدمات في النار ، فرأيت منهم عبـرة عظيمة ، فتركناها وعدنا الى شيزر مع الوالد ، رحمه الله ، وقد أخذ كل ماكان معه من الخيام والجمال والبالغ والبرك والتجمل وتفرق العسكر .

وكان ماجرى عليهم بمكيدة من لؤلؤ الخادم صاحب حلب ذلك الوقت ، قرر مع صاحب انطاكية ان يحتال عليهم ويفرقهم ويخرج ذلك من أنطاكية بعسكره يكسرهم ، فأرسل الى اسباسلار برسق رحمه الله ، يقول : « تنفذ لي بعض الأمراء ومعه جماعة من العسكر أسلم اليه حلب ، فاني أخاف من أهل البلد أن لايطاوعوني على التسليم ، فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوى بهم على الحلبيين » ، فنفذ اليه أمير الجيوش اوزبة ومعه ثلاثة الاف فارس ، وصحبهم روجار لعنه الله ، كسرهم لنفاذ المشيئة .

وعاد الأفرنج لعنهم الله ، الى كفر طاب عمروها وسكنوها . وقدر الله تعالى أنخلص الأسرى من الأفرنج الذين أخذوا من كفر طاب ، فان الأمراء اقتسموهم وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم الا ما كان من أمير الجيوش فانه تقدم الذين طلعوا في سهمه ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه الى حلب ، واقترق العسكر – من سلم منهم من دانيث – وتوجهوا الى بلادهم ، فذلك الرجل الذي طلع وحده الى برج كفر طاب كان سبب أخذها .

ومن ذلك : كان في خدمتي رجل يقال له نـمير العـلاروزري ، راجل شجاع أيد ، نهض هو وقوم من رجال شيزر الى الـروج الى الأفرنج ، فعدثروا في البلد على قافلة من الأفرنج في مغارة ، فقال بعضهم لبعض : « من يدخل عليهم ؟ » قال نـمير : « أنا » فدفع اليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل عليهم ، فاستقبله رجـل منهم ، فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله ، وخلفه أفرنجي معه

سيف فضربه ، وعلى ظهر زمير مزود فيه خبز ، فهو يرد عنه ، فلما قتل الرجل الذي تحته التفت الى صاحب السيف يريده ، فضربه بالسيف في جانب وجهه ففقط حاجبه وجفن عينه وخذه وأنفه وشفته العليا ، فتدلى جانب وجهه على صدره ، فخرج من المغارة الى أصحابه فشدوا جرحه ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة ، فوصل شيزر وهو على تلك الحالة ، فخطط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ماكان عليه ، الا أن عينه تالفت ، وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الاسماعيلية من حصن شيزر وقد تقدم ذكرهم

وحدثني الرئيس سهري وكان في خدمة الأمير شمس الخواص التـونـتاش صاحب ريفية ، وكان بينه وبين علم الدين علي كرد صاحب حماة عداوة وخلاف ، قال : « أمرني شمس الخواص أن أخرج أقدر بلد ريفية وأبصر زرعه ، فخرجت ومعني قوم من الجند قدرت البلد ، ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى ريفية لها برج صعدنا الى سطحه تعشينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج ، فما شعرنا الا برجل قد اشرف علينا من بين شرايف البرج فصاح علينا ورمى نفسه الينا وفي يده سكينه فانهزمنا ونزلنا في السلم الأول وهو خلفنا ، ونزلنا في السلم الثاني ، وهو خلفنا ، حتى وصلنا الباب ، فخرجنا وإذا قد رتب لنا رجالا على الباب فقبضونا جميعا وأوثقونا رباطا ودخلوا بنا الى حماة الى علي كرد ، فما فعل بنا ذلك كله رجل واحد »

ومثل ذلك جرى في حصن الخريبة ، كانت لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، وفيها الحاجب عيسى واليها ، وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ، ثم يرفع السلم فلا يبقى اليها طريق ، وليس مع الوالي في الحصن سوى ابنه وغلامه وبواب الحصن وله صاحب يقال له ابن المرجي يطلع اليه في الوقت بعد الوقت في أشغاله ، فتحدث مع الاسماعيلية وقرر له معهم قرارا أرضاه من مال واقطاع ويسلم اليهم حصن الخريبة ، ثم جاء الى الحصن فاستأنن وطلع ، فبدأ

بالبواب قتله ، ولقيه الغلام فقتله ، وبخل على الوالي قتله ، وعاد الى ابن الوالي قتله ، وسلمه الى الاسماعيلية وقاموا له بما كانوا قرروه له .

والرجال اذا قووا نفوسهم على شيء فعلوه .

ومن ذلك تفاضل الرجال في هممهم ونخواتهم ، وكان الوالد ، رحمه الله يقول لي: « كل جيد من سائر الأجناس ، من الرديء من جذسه مايكون بقيمته ، مثل حصان جيد يسوى مائة دينار ، خمس حصن رديئة تسوى مائة دينار ، وكذلك الجمال ، وكذلك أنواع الملابس ، الا ابن آدم فان ألف رجل أردياء لايساوون رجلا واحدا جيدا » ، وصدق رحمه الله .

كنت قد نفذت مملوكا لي في شغل مهم الى دمشق ، واتفق أن أتاك زندي رحمه الله ، أخذ حماة ونزل على حمص ، فاستدت الطريق على صاحبي ، فتوجه الى بعلبك ومنها الى طرابلس واكثرى بغل رجل نصراني يقال له يونان فحمله الى حيث اكتراه وودعه ، ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل الى شيزر من حصون الجبل ، فلقاهم انسيان فقال لأرباب الدواب : « لاتمضوا ، فان في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في ستين سبعين رجلا يأخذونكم » قال : « فوقفنا لاندري مانعمل ماتطيب نفوسنا بالرجوع ولانجسر على المسير من الخوف ، فنحن كذلك اذا الرئيس يونان قد أقبل مسرعا ، فقلنا ما لك ياريس ؟ قال سمعت ان في طريقكم حرامية جئت لأسيركم ، سيروا . فسرنا معه الى ذلك الموضع ، واذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا ، فلقاهم يونان وقال : « يا فتيان ، موضعيكم انا يونان ، وهؤلاء في خفارتني ، والله ما فيكم من يتقرب منهم ؟ » فردهم والله جميعهم عنا وماأكلوا من عندنا رغيف خبز ، ومشى معنا يونان حتى أمنا ثم ودعنا وانصرف »

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور ، وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة قال حدثني ابن والي الطور - وهي ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله ، رحمه الله ، اذا اراد ابعاد بعض الامراء ولاء الطور ، وهو قريب من بلاد الأفرنج - قال : « وليها والدي وخرجت أنا معه الى الولاية وكنت مغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الأفرنج فأخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار ، فبقيت في الجب سنة لايسأل عني أحد ، فأنا في بعض الأيام في الجب واذا قد رفع عنه الغطاء ودلي الي رجل بدوي ، فقلت : « من أين أخذوك ؟ » قال : « من الطريق » فأقام عندي يوميات وقطعوا عليه خمسين دينارا ، فقال لي يوما من الأيام : « تريد تعلم ان مايخلصك من هذا الجب الا أنا ؟ فخلصني حتى اخلصك » فقلت في نفسي « رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص » فما جاوبته ، ثم بعد ايام اعاد علي ذلك القول : فقلت في نفسي « والله لأسعين في خلاصه لعل الله يخلصني بذوابه » فصحت بالسجان فقلت له : « قل للصاحب اشتهي أحدث معك » فعاد واطلعتني من الجب وأحضرني عند الصاحب ، فقلت له : لي في حبسك سنة ماسأل أحد عني ولايدري أنا حي أو ميت ، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين دينارا اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني اسيرة الى ابي حتى يفكني قال : « افعل » ، فرجعت عرفت البدوي وخرج ودعني ومضى .

فانتظرت مايكون منه شهرين فما رأيت اثرا له ولاسمعت له خبرا ، فبدئت منه ، فما راعني ليلة من الليالي الا وهو قد خرج علي من نقب في جانب الجب وقال : « قم والله لي خمسة (٧٦) اشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك » فقامت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني الى بيتي ، فما ادري مم اعجب من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب .

واذا قضى الله سبحانه بالفرج فما اسهل اسبابه .
كنت اتردد الى ملك الافرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين
محمد بن تاج الملوك رحمه الله ، ليد كانت للوالد . رحمه الله . على
بغدوين الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك ، فكان الافرنج
يسوقون أساراهم الي لأشترتهم ، فكنت أشترى منهم من سهل الله
تعالى خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام جينا في موكب له
يغزي فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو اربع مائة نفس رجال
ونساء ، فكان يجيء أقوام مع مالكمهم فاشترى منهم من قدرت على
شراه ، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم ، فسألت عنه فقيل
لي هو رجل زاهد صاحبه دباغ ، فقلت له : « بكم تبيعني
هذا ؟ » قال « وحق بيني ما يبيعه الا هو وهذا الشيخ جملة كما
اشتريتهما بثلاثة واربعين ديناراً » فاشتريتهما واشتريت لي منهم
نفرا ، واشتريت للأمير معين الدين رحمه الله ، منهم نفرا بمائة
وعشرين ديناراً، ووزنت ما كان معي وضمنت علي بالباقي .

وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين ، رحمه الله ، « قد
اشتريت لك أسارى اختصك بهم ، وما كان معي ثمنهم ، والآن قد
وصلت الى بيتي ، إن أردتهم وزنت ثمنهم ، والا وزنته
انا » قال : « لابل أنا أزن والله ثمنهم ، وأنا أرغب الناس في
ثوابهم » ، وكان رحمه الله ، اسرع الناس الى فعل خير وكسب
مذوبة، ووزن ثمنهم ، وعدت بعد أيام إلى عكا .

وقد بقي من الأسرى عند كليام جينا ثمانية وثلاثون
اسيرا ، وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على
يدي ، فاشتريتها منه ، وماوزنت ثمنها ، فركبت الى داره لعنه
الله ، وقلت : « تبيعني منهم عشرة ؟ » قال : « وحق بيني ما يبيع الا
الجميع » ، قلت : « سامعي ثمن الجميع ، وأنا اشترى
بعضهم ، والذوبة الاخرى اشترى الباقي » قال : « ما يبيعك الا
الجميع » فانصرفت وقد ر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة

جميعهم ، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم
الاسير أخفوه وأوصلوه الى بلاد الاسلام .

وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد ، واحسن الله سبحانه
خلاصهم ، واصبح يطالبني بثمان المراه التي كنت اشتريتها
وماوزنت ثمنها وقد هربت في من هرب ، فقلت : « سلمها الي وخذ
ثمنها » قال : « ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب » والزمني بوزن
ثمنها ، فوزنته وهان ذلك علي لسرتي بخلاص أولئك المساكين .

ومن عجائب السلامة اذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة ان
الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتوق ، رحمه
الله ، عمل على مدينة آمد عدة مرار ، وأنا في خدمته ، ولا يبلغ منها
مقصودة ، وكان آخر ما عمل عليها أن أميرا من الأكراد كان مديونا
بآمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقرر الأمر أن تصله العساكر
في ليلة تواعدوا اليها ويطلعهم بالحبال ويملك آمد ، فعول فخر الدين
في ذلك المهم على خادم له افرنجي يقال له ياروق ، والعسكر كله
يملكه ويكرهه لسوء أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب
باقي الأمراء فتبعوه ، وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء إلى
آمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ودلوا
اليهم الحبال وقالوا : « اطلعوا » - ماطلع منهم أحد ، فنزلوا
كسروا أقفال باب المدينة وقالوا « ادخلوا » مادخلوا ، وكل ذلك
لاعتقاد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء
الكبار .

وعلم بذلك الأمير كمال الدين علي بن نيسان والبلدية
والجند ، ففزعوا اليهم ، فقتلوا بعضهم ، ورمى بعضهم
نفسه ، وقبضوا بعضهم ، ومد بعض النين رموا نفوسهم ، وهو
نازل في الهواء ، يده كأنه يريد شيئا يتمسك به ، فوقع في يده حبل
من تلك الحبال التي دلوا أول الليل وماطلعوا فيها فتعلق به ونجا

دون أصحابه ، وإلا أن كفيه انسلختا من الحبل ، هذا وأنا حاضر .

وأصبح صاحب أمد يتبع النين عملوا عليه فقتلهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة انقذ الانسان من لهأة الأسد فذلك حق لا مثل .

كان في حصن الجسر (٧٧) رجل من أصحابنا من بني كنانة يعرف بابن الأحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له ، فاجتاز بكفرنبوذا (٧٨) وقافلة عابرة على الطريق ، فأوا الأسد ومع ابن الأحمر حربة تلمع ، فصاح اليه أهل القافلة : « يا صاحب الخشت (٧٩) البراق دونك الأسد » فحملة الحياء من صياحهم ان حمل على الأسد فصاحت به الفرس فوق ، وجاء فبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شعبان ، فالتقم وجهه وجبهته ، فجرح وجهه وصار يلحس الدم ، وهو بارك عليه لاديؤنيه ، قال : « ففتحت عيني فأبصرت لهأة الأسد ، ثم جذبت نفسي من تحته ، ورفعت فخذه عني ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرأني وجاء خافي ، فسبقت وطلعت في الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاني من الذر شيء عظيم على تلك الجراح - والذر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر - قال : « فرأيت الأسد قد قعد وانصب أذانه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول فاذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه الى بيته ، وكان اثر انياب السبع في جبهته وخديه كوسم النار فسبحان المسلم

قلت : تفاوضنا يوما في ذكر القتال ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة (٨٠) رحمه الله ، يسمع فقلت له : « يا استاذ ، لو ركبت حصانا ولبست كزاغندا وخوذة وتقلدت سيفاً وحملت رمحا وترسا ووقفت عند مشهد العاصي موضع ضيق كان الأفرنج ، لعنهم الله ، يجتازون به - ماكان

يجوزك أحد منهم » ، قال : « بلى والله كلهم » ، قلت : « كانوا يهابونك ، ولا يعرفونك » قال : « سبحان الله ، فأنا ما أعرف نفسي ! » ، ثم قال لي « يا فلان ، ما يقاتل عاقل » قلت : « يا استاذ تحكم على فلان وفلان وعدت له رجالا من أصحابنا من شجعان الفرسان أنهم مجانيين ! » قال : « ما هذا قصدت ، انما قصدي ان العقل لا يحضر وقت القتال ، ولو حضر ما كان الانسان يلقي بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام ، ما هذا شيء يقضي به العقل » .

وكان رحمه الله ، بالعلم أخبر مما هو بالحرب ، فان العقل هو الذي يحمل على الاقدام على السيوف والرماح والسهام أنفة من موقف الجبان وسوء الاحدثة ، ودليل ذلك ان الشجاع يلحقه الزمعة والرعدة وتغير اللون قبل دخوله في الحرب لما يفكر فيه وتحدث به نفسه مما يريد عمله ويباشره من الخطر ، والذفس ترتاع لذلك وتكرهه ، فاذا بخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمعة والرعدة وتغير اللون ، وكل امر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل .

ومن ذلك ان الفرنج نزلوا مرة على حماة في أزوارها وفيها زرع مخصب ، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع ، وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يديرون بعسكر الافرنج يسرقون منه ، فأوا الخيام في الزرع ، فأصبح بعضهم حضر صاحب حماة وقال : « الليلة احرق عسكر الافرنج كله » قال : « ان فعلت خلعت عليك » فلما امسى خرج ومعه نفر على رايه طرحوا النار غربي الخيام في الزرع لتسوقها الرياح الى خيامهم ، فصار الليل بضوء النار كالنهار ، فراهم الافرنج فقصدهم فقتلوا أكثرهم ، ومانجا منهم الا من رمى نفسه بالماء وسبح الى الجنب الآخر ، فهذه آثار الجهل وعواقبه .

ورأيت مثل ذلك ، وان لم يكن في الحرب ، وقد عسكر الافرنج على بانياس في جمع كثير ، ومعه البطرك وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولى خدمتها شيخ شماس منهم ، وقد

فرش أرضها بالحلفاء والحشيش ، فكثرت البراغيث فطرح فيه النار ، وقد يبس ، فارتفعت أسنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا ، فهذا لم يحضره العقل

وضدده اننا ركبنا في بعض الايام من شيزر الى الصيد وعمي ، رحمه الله ، معنا وجماعة من العسكر ، فخرج علينا السبع من قصباء بخلناها لصيد الدراج ، فحمل عليه رجل من الجند كردي يقال له زهر الدولة بختيار القبرصي سمي بذلك للطف خلقة ، وكان رحمه الله ، من فرسان المسلمين ، فاستقبله السبع فحاص به الحصان ، وجاءه السبع وهو ملقى ، فرفع رجله ، فتلقمها السبع ، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم ، فقلنا له : « يازهر الدولة ، لم رفعت رجلك الى فـــــــم السبع ؟ » فقال : « جسمي كما ترونه ضعيف نحيف ، وعلي ثوب وغلالة ، وما في أكسى من رجلي ، فيها الرانات والخف والساق موزا ، فقلت : « اشغله بها عن اضلاعي أو يدي أو راسي الى أن يفرج الله تعالى » فهذا حضره العقل في مــــوضع تــــزول فيه العقول ، وأولئك محضرهم العقل ، فالانسان أحوج الى العقل من كل ماسواه ، وهو محمود عند العاقل والجاهل .

ومن ذلك ان روجار صاحب انطاكية كتب الى عمي يقول : « قد نذنت فارسا من فرساني في شغل مهم الى القدس ، أسأل أن تنفذ خيلك تأخذه من أفامية ويوصلونه الى رمنية » ، فركب وأرسل اليه من أحضره ، فلما لقيه قال : « قد نذنتني صاحبي في شغل وسر له ، لكنني رأيته رجلا عاقلا ، فأنا أحدثك به » فقال له عمي : « من اين عرفت اني عاقل وما رأيته قبل الساعة ؟ » قال « لأنني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلك عامر ، فعرفت أنك ماعمرته الا بعقلك وسياستك » ، وحدثه ماجاء فيه .

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب إربل قال : « حدثني أبو الهيجاء وقال : « بعثني السلطان ملك شاه لما وصل الى الشام

الى الامير ابن مروان صاحب بيار بكر يقول : « أريد ثلاثين ألف دينار ، فاجتمعت به وأعدت عليه الرسالة ، فقال : « تستريح ونتحدث واصبح أمر أن يدخلوني الحمام ، ونفذ آلة الحمام جميعها فضة ونفذ لي بدلة ثياب ، وقالوا لفراسي : كل آلة الحمام لكم ، فلما خرجت لبست ثيابي وردت جميع الحوائج ، فتركتني أياما ثم أمر لي بالحمام وما أنكر رد الحوائج ، وحملوا معي آلة الحمام أفضل من الآلة « الأولى » وبدلة ثياب أفضل من البدلة « الأولى » وقال الفراراش لفراسي كما قال أولا ، فلما خرجت لبست ثيابي وردت الحوائج والثياب ، فتركتني ثلاثة أربعة أيام ثم عاد أدخلني الى الحمام وحملوا معي آلات فضة أفضل من « الأولى » ، وبدلة ثياب أفضل من « الأولى » ، فلما خرجت لبست ثيابي وردت الجميع ، فلما حضرت عند الامير قال لي : « يا ولدي » ، نفذت اليك ثيابا مالبستها ، وآلة الحمام ما قبلتها ، وردتها ، اي شيء سبب هذا ؟ قلت : يامولاي ، جئت برسالة السلطان في شغل ما انقضى ، أقبل ما تفضلت به وأرجع وما انقضى شغل السلطان فكأنني ماجئت الا في حاجتي ، قال : يا ولدي ما رأيت عمارة بلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيتها وعمارة ضياعها أتراني كنت أتلذذ هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار ؟ والله إن الذهب قد كدسته من يوم وصولك ، وانما انتظرت أن يتجاوز السلطان بلادي وتلذذه بالمال خوفا من أن استقبله بالذي طلب ، فيطلب مني اذا بنا من بلادي اضعافه ، فلا تشغل قلبك ، فشغلك قد انقضى ، ثم نفذ لي الثلاث بدلات ، التي كان نفذها لي وردتها ، مع جميع حوائج الحمام التي نفذها لي في الثلاث بدلات ، فقبلتها ، ولما تجاوز السلطان بيار بكر ، أعطاني المال فحملته ولحقت به السلطان » .

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد ، فمن ذلك ان اتابك زنكي ، رحمه الله ، خطب بنت صاحب خلاط وقد مات أبوها وأما مدبرة البلد ، ونفذ حسام الدولة بن بلاج خطبها لابنه ، وهو صاحب بدليس فسار أتابك بعسكر حسن الى خلاط على غير الطريق المسلوك لأجل درب بدليس فسلك فيها الجبال ، فكنا ننزل

بغير خيام ، وكل واحد في موضعه من الطريق حتى وصلنا خلاط
فخيم أتابك عليها وبخنا قلعتها وكتبنا المهر .

فلما انقضى الشغل أمر أتابك أن يأخذ صلاح الدين معظم العسكر
ويسري الى بدليس يقاتلها فركبنا أول الليل وسرنا وأصبحنا على
بدليس ، فخرج الينا حسام الدولة صاحبها ، فلقينا على فسحة من
البلد ، وأنزل صلاح الدين في الميدان ، وحمل اليه الضيافة
الحسنة ، وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال : « يامولاي ، اي شيء
ترسم ؟ فقد تعנית وتعبت في مجيئك » قال : « أتابك احذقه خطبتك
للبنات التي كان خطبها ، وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار نريدها
مذك » قال : « اسمع والطاعة » فعجل له بعض المال واستمهل
بباقيه اياما عينا ، ورجعنا وبلده بحسن سياسته عامر ما نخل عليه
خلل .

وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك بن سالم رحمه
الله (٨١) وذلك ان جوسلين أغار على الرقة والقلعة فأخذ كل
ما عليها وسبى وساق غنائم كثيرة ، ونزل مقابل القلعة وبينهم
الفرات ، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من
غلمانة وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة ، ولما كان عليه
جميل ، وظن جوسلين أن في الزورق رسولا من مالك ، فجاءه واحد
من الأفرنج وقال : « هذا مالك في الزورق » ، قال : « ما هو
صحيح » ، فأتاه آخر قال : « نزل مالك من الزورق وهو جاءني
يمشي » ، فقام جوسلين والتقاء وأكرمه ورد عليه جميع ما كان أخذه
من الغنائم والسبي ، ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده .

إذا انقضت المدة لم تدفع الشجاعة ولا الشدة .

شاهدت يوما وقد زحف الينا عسكر الأفرنج يقاتلنا ، ومضى
بعضهم مع طغديكين أتابك الى حصن الجسر يقاتله ، وكان أتابك

اجتمع هو وايلغازي بن أرتق و الأفرنج في اقامية لحاربة عساكر السلطان وكان وصل بها الى الشام اسباسلار برسق بن برسق ، وقد نزل حماة يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة تسع وخمس مائة فأما نحن فقاتلونا بالقرب من سور المدينة ، فاستظهرنا عليهم ودفعناهم وانبسطنا معهم ، فشاهدت رجلا من أصحابنا يقال له محمد ابن سرايا وهو شاب شديد أيد ، قد حمل عليه فارس من الأفرنج لعنه الله ، فطعنه في فخذه ففد القنطارية فيها ، فمسكها محمد وهي في فخذه ، وجعل الأفرنجي يجذبها ليأخذها ومحمد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قورت فخذه ، واستلب القنطارية بعد أن أتلف فخذه ، ومات بعد يومين ، رحمه الله .

ورأيت في ذلك اليوم ، وأنا في جانب الناس في القتال ، فارسا قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله ، وصاحبنا راجل في الأرض ولا أدري من هو لبعد ما بيننا ، فدفعت حصاني اليه خوفا عليه من الأفرنجي الذي طعنه ، وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصاريه ، والأفرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد وجذب سيفه ووقف مستقبلة ، فلما وصلته وجدته ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد ، رحمه الله ، فوقففت عليه وأخليت له ركابي وقلت : « اركب » فلمّا ركب رددت رأس حصاني الى المغرب ، والمدينة من شرقينا ، فقال لي : « الى أين تروح ؟ » قلت : « الى هذا الذي طعن حصانك ، فهو فرصة » فمد يده وقبض على عنان الحصان وقال : « ماتطاعن وعلى حصانك لا بسان ، اذا اوصلتني ارجع طاعنه » فمضيت اوصلته وعدت الى ذلك الكلب ، وقد نخل في أصحابه .

وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الأفرنج ، لعنهم الله ، نزلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيانة عظيمة لا يمكنهم ان يجوزوا إلينا ، ولا نقدر نحن نجوز إليهم ، فنزلوا على الجبل بخيامهم ، ونزل منهم قوم الى البساتين

وهي من جانبهم ، هملوا خيلهم في القصيل وناموا ، فتجرد شباب من رحالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا الى اولئك النيام ، فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على اصحابنا ، فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا ، وعسكر الافرنج قد ركب من الجبل مثل السيل ، ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد ابي المجد بن سمية فيه رجل يقال له حسن الزاهد ، وهو واقف على سطح يذوب في المسجد يصلي وعليه ثياب سود صوف - ونحن نراه ومالنا اليه سبيلا ، وقد جاء الافرنج فنزلوا على باب المسجد وصعدوا اليه ونحن نقول: لاحول ولا قوة الا بالله الساعة يقتلونه ، فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه ، وعاد الافرنج نزلوا وركبوا خيلهم وانصرفوا وهو واقف مكانه ، ولا نشك ان الله سبحانه اعماهم عنه وستره عن ابصارهم ، فسبحان القادر الرحيم .

ومن الطاف الله تعالى ان ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة اثنين وثلاثين وخمس مائة خرج من شيزر جماعة من الرجال للقتال فاقتطعهم الروم فقتلوا واسروا بعضا في جملة من اسروا زاهدا من بني كردوس من الصالحية ، من مولدي محمود بن صالح (٨٢) صاحب حلب ، فلمسا عاد الروم كان معه مأسورا ، فوصل القسطنطينية ، فهو في بعض الايام فيها اذ لقيه انسان فقال: «أنت ابن كردوس؟» قال «نعم» قال «سر معي اوقفني على صاحبك» فسار معه حتى اراه صاحبه ، فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه فوزن له الثمن وأعطى ابن كردوس نفقة وقال: «تبلغ بها الى اهلك ، وامض في دعة الله تعالى ، فخرج من القسطنطينية وتوصل الى ان عاد الى شيزر ، وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه ، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه .

وقد جرى لي ما يشبه ذلك لما خرج علينا الافرنج في طريق مصر وقتلوا عباس بن أبي الفتوح وابنه نصرا الكبير ، انهزمنا نحن الى جبل قريب منا ، فصعد الناس فيه رجالة يمشون يجرون خيلهم وأنا

على اكديش ولا استطيع المشي ، فصعدت وأنا راكب وسفوح ذلك
الجبل كلها ذقارة وحصى كلما وطئته الفرس انهـر تحـت
قوائمه ، فضربت الاكديش ليطلع فما استطاع ، ونزل والحصى
والذقارة تنزل به ، فترجلت عنه وأقمته ووقفت لا أقدر على
المشي ، فنزل الي رجل من الجبل فمسك بيدي وبرذوني في يدي
الأخرى حتى اطلعني ، ولا ، والله ، ما أدري من هو ولا عت
رأيته .

وقد كان في ذلك الوقت الصعب يمتن فيه بيسير
الاحسان ، ويطلب المكافأة عنه ، ولقد شربت من بعض الأتراك
شربة ماء اعطيته عنها دينارين ، وما زال بعد وصولنا دمشق
يقتضيني حوائجه ويتوصل بي الى اغراضه لأجل تلك الشربة التي
ساقانيها ، وما كان ذلك الذي اعانني الا ملكا رحماني الله تعالى
فأغاثني به .

ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبد الله المشرف قال «حبست
بحيزان (٨٣) قيدت وضيق علي ، فأنا في الحبس والموكلون على
بابه فرأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم فقال: «اللع
القيد واخرج» فانتبهت جذبت القيد ، فخرج من رجلي ، وقمت الى
الباب أريد افتحه ، فوجدته مفتوحا ، فتخطيت الرجال الموكلين الى
مذفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه ، فخرجت منه ، ووقعت
على مزبلة ، فبقي فيها آثار وقوعي وأثار رجلي ، ونزلت في واد
حول السور وبخلت مغارة في سفح الجبل من ذلك الجانب وأنا أقول
في نفسي: الساعة يخرجون يرون أثري ويأخذوني ، فأرسل الله
سبحانه ثلجا غطى ذلك الأثر ، وخرجوا يطوفون علي ، وأنا أراهم
نهارهم ذلك ، فلما امسيت وأمنت الطلب خرجت من تلك المغارة
وسرت الى مأمني » ، كان هذا الرجل مشرفا على مطبخ صلاح
الدين محمد بن أيوب اليفسانيانى رحمه الله .

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يقاتلون الجنة لا لرغبة ولا لسمعة

ومن ذلك أن ملك الالمان الافرنجي ، لعنة الله ، لما وصل الشام اجتمع اليه كل من بالشام من الافرنج ، وقصد دمشق ، فخرج عسكر دمشق واهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلولي ، رحمهما الله ، وكانا من خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه إلى متى نحن وقوف؟ قال «سر على اسم الله تعالى » فتقدما قاتلا حتى قتلا رحمهما الله ، في مكان واحد .

ومن الناس من يقاتل للوفاء ، فمن ذلك ان رجلا من الاكراد يقال له فارس ، وكان كاسمه فارسا وأي فارس . فحضر ابي وعمي ، رحمهما الله ، وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلف ابن ملاعب عمل عليهم فيها وغدر بهم ، وقد حشد وجمع وهم غير متاهيين لما جرى ، وسبب ذلك انه راسلهم وقال: «نمضي الى اسفونا (٨٤) وفيها الافرنج نأخذها » فسابقه اصحابنا اليها وترجلوا وزحفوا الى الحصن نقيوه ، وهم في القتال وابن ملاعب وصل ، فأخذ خيل من كان ترجل من اصحابنا ووقع القتال بينهم ، بعدما كان للافرنج ، واشتد بينهم القتال ، فقاتل فارس الكردي قتالا عظيما وجرح عدة جراح ، وما زال يقاتل ويجرح حتى اثنى بالجراح ، وانفصل القتال ، فاجتاز به ابي وعمي ، رحمهما الله ، وهو محمول بين الرجال فوقفوا عليه «وهنياء» بالسلامة . فقال «والله ما قاتلت أريد السلامة ، لكن لكم علي جميل وفضل كثير وما رأيتمكم في شدة مثل هذا اليوم ، فقلت «اقتل بين أيديكم وأجازيكم عن جميلكم وأقتل قدامكم».

وقضي الله سبحانه انه عوفي من تلك الجراح ومضى الى جبلة وفيها فخر الملك بن عمار وفي اللاذقية الافرنج ، فخرجت خيل من جبلة تريد الغارة على اللاذقية ، وخرجت خيل من اللاذقية تريد

الغارة على جبلة ، فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابية ، فطلع فارس من الأفرنج من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس الكردي من الجانب الآخر كشف لأصحابه ، ، فالتقى الفارسان على متن الرابية فحمل كل واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنتين فوقعا ميتين وبقيت الحصن تتصاول على الرابية ، والفارسان قتيلا .

وكان لفارس هذا عندنا ولد اسمه علان من الجند له الخيل الملاح والعدة الحسنة ، ولكن ما كان كأبيه ، فنزل علينا بذكري صاحب انطاكية يوما وقاتلناه قبل ضرب الخيام ، وهذا علان بن فارس على حصان مليح باغز (٨٥) من أحسن الخيل ، وهو واقف على رفعة من الأرض ، فحمل عليه فارس من الأفرنج وهو كالغافل ، فطعن حصانه في رقبتة نفذ القنطارية ، فشب الحصان رمى علان ، وعاد الأفرنجي ، والحصان معارضه ، والقنطارية في رقبتة ، كأنه يجنبه ، يتمختر بغنيمة حسنة .

وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ، فمن ذلك انه كان في جنودنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير ، رحمه الله ، وله حصان أدهم أصم مثل الجمل ، فالتقى هو وفارس من الأفرنج فطعن الأفرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبتة من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر ، وما تززعزع الحصان من تلك الطعنة ، ولا فارسه ، فكنت أرى ذلك الجرح الذي في فخذة بعد ما اندمل وختم وهو كأكبر ما يكون من الجراح ، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال ، فالتقى هو وفارس من الأفرنج ، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع ، وسلم من تلك الطعنة الثانية ، فكانت بعد ان اختمت اذا اطبق الانسان كفه وادخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح ، وسعها .

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عز الدولة أبا

الحسن عليا رحمه الله ، اشتراه من كامل المشطوب ، وكان ثقيلا العدو ، فاخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من افرنج كقرطاب ، فبقي عنده سنة ثم مات ، فأرسل الينا يطلب ثمنه ، قلنا « اشتريته وركبته ، ومات عندك ، كيف تطلب ثمنه قال » انتم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة « فعجبنا من جهله وسخافة عقله .

وجرح تحتي حصان على حمص شقت الطعنة قلبه وأصابه عدة سهام ، فاخرجني من المعركة ومنخرأه يدميان بالدم كالغزلتين ، (٨٦) وما انكرت منه شيئا ، وبعد وصولي الى اصحابي مات .

وجرح تحتي حصان في بلد شيزر في حرب محمود بن قراجا ثلاثة جراح ، وأنا اقاتل عليه ، ولا اعلم ، والله انه قد جرح ، لاني ما انكرت منه شيئا .

وأما خورها وضعفها على الجراح ، فإن عسكر دمشق نزل على حماة ، وهي لصالح الدين محمد بن ايوب اليفسياني ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغديكين ، وأنا بها ، وزحفوا الينا في جمع كثير ، ووالي حماة شهاب الدين احمد بن صلاح الدين وهو على تل مجاهد (٨٧) فجاءه الحاجب غازي التلي فقال : « قد انتشرت الرجالة ، والخوذ تتلامع بين الخيام ، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم » ، فقال « امض ربهـم » فقال : « والله ما يردهم الا انت او فلان » ، يعنيني ، فقال لي : تخرج تربهم ، فقلعت زربية كانت على غلام لي لبستها وخرجت ردت الناس بالدبوس ، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل واتلعاها ، فلما ردت الناس زحفوا الينا ، وما برا من سور حماة فارس غيري ، منهم من بخل المدينة وايقنوا انهم مأخوذون ، ومنهم من هو مترجل في ركابي ، فاذا حملوا علينا اخرت الحصان بعنانه وأنا مستقبليهم ، وإذا عادوا مشيت خلفهم شبرة لضيق المجال

وازيحام الناس ، فضربت حصاني نشابة في ساقه خمشته ، فوقع بي وقام ، ووقع ، وأنا أضربه حتى قال لي الرجال النين في ركابي «ادخل الى الباشورة (٨٨) اركب غيره» فقلت والله ما انزل عنه» فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم اره من غيره.

ومن حسن صبر الخيل ان طراد بن وهيب النميمري حضر القتال بين بني نمير ، وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي الرقة وملكوها ، والحرب بينهم وبين اخيه شهاب الدين مالك بن شمس الدولة ، وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجود الخيل له قيمة كبيرة ، قطعن في خاصرته ، فخرجت مصارينه ، فشدها طراد في السموط لا يدوسها فيقطعها ، وقاتل حتى انقضى القتال ، فدخل به الى الرقة ، فمات .

قلت اذكرني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ، رحمه الله ، وذلك ان ملك الأمراء اتابك زنكي ، رحمه الله ، نزل على دمشق في سنة ثلاثين وخمس مائة بأرض داريا وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بوري ابن طغديكين ، رحمه الله ، في الوصول اليه ، وخرج من بعلبك متوجها الى خدمة اتابك ، فبلغه ان عسكر دمشق خرج يريد أخذه ، فأمر صلاح الدين ان نركب للقائه ودفن الدمشقيين عنه ، وهو قد ركب ووقف عند خيمته ، فركبت في الوقت ، فقال : « كنت قد علمت بركوبي قلت : (لا والله » ، قال : « الساعة دفنت اليك ، فركبت في الوقت » ! قلت : « يا مولاي حصاني يأكل شعيره ، ويلجمه الركابي ويقعد وهو في يده على باب الخيمة ، وأنا ألبس عدتي وأتقلد سيفي وأنا ، فلما جاءني رسوك ما كان لي ما يعوقني » .

فوقف الى ان اجتمع عنده جماعة من العسكر ، وقال : « البسوا سلاحكم » ، وقد لبس أكثر الحاضرين وأنا الى جانبه ، ثم قال : « كم أقول لكم البسوا سلاحكم ؟ » قلت : « يامولاي ، لا تكون

تعينني ؟ قال : « نعم » ، قلت : « والله ما أقدر البس ، نحن في أول الليل ، وكذا اغندي فيه زربيتان مطبقتان إذا رأيت العدو لبسته » ، فسكت

وسرنا فصبحنا عند ضمير ، فقال لي : « ما ننزل نأكل شيئا ؟ فقد جعت من السهر » ؟ قلت : « الأمر لك » ، فنزلنا فما استقر على الأرض حتى قال : « أين كزاغندك فأمرت الغلام فأحضره ، وأخرجته من عيبته وأخرجت السكين فتقتله عند صدره ، وأظهرت جانب الزربيتين - وكان فيه زربية أفرنجية إلى نيله وفوقها أخرى إلى وسطه على كل زربية البطائن واللبد واللاسين ووبر الأرنب ، فالتفت إلى غلام له كلمه بالتركي ولا أدري ما يقول ، فأحضر بين يديه حصانا كميتا كان اعطاه اياه اتابك في ذلك الايام كالصخرة الصماء قدت من قنة الجبل ، فقال : « هذا الحصان يصلح لهذا الكزاغند ، سلمه إلى غلام فلان » ، فسلمه إلى غلامي

قلت كان عمي عز الدين ، رحمه الله ، يتفقدني حضور فكري في القتال ، ويمتحنني بالمسألة ، فنحن يوما في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب ، فجرد عمي من العسكر نحو من ستين سبعين فارسا وقال لي « خذهم وسر اليهم » ، فمضينا نتراكض والتقينا بواد خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه ، ودفنت فارسا من اصحابي إلى عمي وابي ، رحمهما الله ، وهما واقفان ومعهما باقي العسكر وراجل كثير أقول لهما : « سيرا بالرجالة فقد كسرتهم » ، فساروا الي ، فلما قربا حملنا عليهم كسرناهم ، ورموا خيلهم في الساروت (٨٩) ، وعبروه سباحة وهو زائد ، ومضوا وعنا بالنصر ، فقال لي عمي : أي شيء دفنت تقول لي ؟ قلت : « دفنت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » ، فقال : « مع من دفنت

الي ؟» قلت : « مع رجب العبد » ، قال : « صدقت » ، ما أراك كنت إلا حاضر القلب ، ما أدهشك القتال .

ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة ، وكان محمود بن قراجا قد استعان على قتالنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص ، وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح الى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعا او ثمانية عشر ذراعا ، فوقف مقابلي موكب منهم ، وأنا في سرية نحو من خمسة عشر فارسا ، فحمل علينا منهم علوان العراقي ، وهو من فرسانهم وشجعانهم ، فلما بنا منا وما تزعزعا رجع ورد رمحه الى خلفه ، فرأيت كالحبل مطروحا على الأرض لا يقدر يرفعه ، فأطلقت حصاني عليه ، فطعنته وقد وصل إلى أصحابه ، وعدت وراياتهم على رأسي ، فلقيتهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة منذر ، رحمه الله ، فريهم وقد انقطع نصف يرقى (٩٠) في كزاغند علوان ، ونحن بالقرب من عمي ، وهو يراني ، فلما انفصل القتال قال لي عمي : « أين طعنت علوان العراقي ؟ » قلت : « اربت ظهره ، فمال الهواء بالبندق فوقع الرمح في جانبه » .

قال : « صدقت ، ما كنت الا حاضر القلب ذلك الوقت » .

(مع الأسود وسائر الحيوانات)

وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره لي ، ولقد رأيت يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الأفرنج على قطعية قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي ، رحمه الله ، فرسان أفرنج وأرمن ، فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ خيرخان صاحب حمص خيلاً كمزوا لهم في ظاهر شيزر ، فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم ، ووقع الصائح ، فركب عمي وأبي ، رحمهما الله ، ووقفوا ، وكل من يصل اليهما قد سيراه من خلفهم ، وجئت أنا فقال لي أبي: « اتبعهم بمن معك ، وأرموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص ، وعجبت من قوله: « ارموا نفوسكم عليهم ».

ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد اخرجت رأسها على أفريز رواق القنطرة التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، واخرجت سكيناً صغيرة من سوطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها ، وخرجت التفت على يدي ، الى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار ، وهي ميتة .

بل رأيت ، رحمه الله ، وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها ، فحمل على الخيل ، ثم وقف ، وأنا وأخي بهاء الدولة مذقذ ، رحمه الله ، بين

الأسد وبين موكب فيه ابي وعمي ، رحمهما الله ، ومعهما جماعة من الجند ، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الأرض ويهدر ، فحملت عليه ، فصاح علي أبي ، رحمه الله « لا تستقبله ، يا مجنون ، فإخذك ! » فطعنته . فلا والله ما تحرك من مكانه . ومات موضعه .

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم .

خلق الله عز وجل خلقه أطوارا (٩١) مختلفي الخلق والطبائع : الأبيض والأسود والجميل والقبيح ، والطويل والقصير ، والقوي والضعيف ، والشجاع والجبان ، بمقتضى حكمته وعموم قدرته .

رأيت بعض أولاد الأمراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الأمراء أتاك زنكي ، رحمه الله ، وقد أصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخى وانحلت أعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه ، وهو رجل مثل الأسد ، أجسم ما يكون من الرجال ، فأحضروا له الطبيب والجراحي . فقال الطبيب : « ما به بأس ، بل متى ما جرح ثانية مات » . فهدأ وركب وتصرف كما كان ، ثم أصابته نشابة أخرى بعد مدة أحقر من « الأولى » وأقل نكاية ، فمات .

ورأيت ما يقارب ذلك أيضا ، كان عندنا بشيزر اخوان يقال لهما بذو مجاجو الواحد اسمه أبو المجد والآخر محاسن وهما ضمان رحاة الجسر بثمان مائة دينار ، وعند الرحا مذبج للغنم يذبح فيه جزارو البلد ويجتمع الزنابير على آثار الدم ، فاجتاز محاسن بن مجاجو يوما الى الرحا ، فأسعه زنبور ، فانفلج وانقطع كلامه وأشرف على الموت ، وبقي كذلك مدة ، ثم أفاق وانقطع عن الرحا مدة فعاتبه أخوه أبو المجد وقال له : « يا أخي ، ضمننا هذه الرحا بثمان مائة دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها ؟ وغدا يذكسر علينا ضمانها ونموت في الحبس » ، فقال له محاسن : « أنت مقصودك ان

يأسعني زنبور آخر فيقتلني . وأصبح جاء الى
الرحا ، فأسعه ، زنبور ، فمات فأيسر الأشياء يقتل اذا فرغ
الاجل ، والفأل موكل بالمنطق .

فمن ذلك أنه ظهر عندنا بأرض شيزر سبع ، فركبنا اليه فوجدنا
غلاما للأمير اسمه شماس ، فقال له عمي : « أين الأسد ؟ »
قال : « في تلك الحلقاء » قال : « سر قدامي اليها » . قال : « انت
مقصودك ان يخرج الأسد يأخذني » ومشى قدامه ، فخرج الأسد كأنه
مرسل الى شماس فأخذه ، فقتله دون الناس ، وقتل الأسد .

وشاهدت من الأسد ما لم أكن لأظنه ، ولا اعتقدت ان الأسد
كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان ، وذلك أن
جوبان (٩٢) الخيل جاءنا يوما يركض وقال : « في أجمة تل التلول
ثلاثة سباع » ، فركبنا فخرجنا اليها ، وإذا لبوة خلفها
اسدان ، فدرنا في تلك الأجمة ، فخرجت علينا اللبوة ، فحملت على
الناس ووقفت ، فحمل عليها أخي بهاء الدولة ابو المغيث
منقذ ، رحمه الله ، طعنها قتلها ، وتكسر رحمه فيها .

ورجعنا الى الأجمة ، فخرج علينا احد السبعين فطرد
الخيـل ، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طرد
الخيـل ، فإن الأسد اذا خرج من موضع لا بد له من الرجوع اليه بلا
شبهة ، وجعلنا اعجاز خيلنا اليه ، وردنا رماحنا نحوه ونحن
نعتقد انه يقصدنا فنزح الرماح فيه فنقتله ، فما راعنا الا وهو
عابر علينا كالريـح الى رجل من اصحابنا يقال له سعد الله
الشيباني ، فضرب فرسه رماها ، فطعنته وسطت القنطارية فيه
فمات مكانه .

ورجعنا الى الاسد الآخر ومعنا نحو من عشرين راجلا من
الارمن الاجناد رماة ، فخرج السبع الآخر وهو أعظمها خلقا
يمشي ، وعارضه الارمن بالذشاب ، وأنا معارض الارمن انتظره

يحمل عليهم يأخذ واحدا منهم فأطعنه وهو يمشي ، وكلما وقعت فيه نشابة قد هدر ولوح بنذبه فأقول: « الساعة يحمل » ثم يعود يمشي ، فما زال كذلك حتى وقع ميتا ، فرأيت من ذلك الأسد شيئا ما ظننته .

ثم شاهدت من الأسد أعجب من ذلك .

كان بمدينة دمشق جرو أسد قد رباه سباع معه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأنى الناس به ، فقبل للأمير معين الدين ، رحمه الله ، وأنا عنده: « هذا السبع قد أنى الناس . وهو في الطريق » ، وكان على مصطبة بالقرب من دار معين الدين في النهار والليل ، فقال : « قولوا للسباع يجي به » . فقال للـخـوـان سـلار (٩٣) « أخرج من ذبائح المطبخ خروفا اتركه في قاعة الدار حتى نبصر كيف يكسره السبع » . فأخرج خروفا الى قاعة الدار ، وبخل السباع ومعه السبع ، فساعة رآه الخروف ، وقد ارسله السباع من السلسلة التي في رقبتـه ، حمل عليه فنطحه ، فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة والخروف خافه يطرده وينطحه ، ونحن قد غلبنا الضحك عليه ، فقال الأمير معين الدين ، رحمه الله : « ذا سبع منحوس » أخرجوه اذبحوه واسلخوه ، وهاتوا جلده . فذبحوه وسلخوه ، وأعتق ذلك الخروف من الذبح .

ومن عجيب أمور السباع أن أسدا ظهر عندنا في أرض شيزر ، فخرجنا اليه ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلام للمعند (٩٤) الذي كان يطيعه أهل الجبل ويكاد أن يعبد ، وسمع ذلك الغلام كلب له ، فخرج الأسد على الخيل ، فجالت قدامه جافلة ، وبخل في الرجالة ، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه ، فوثب الكلب على ظهر الأسد ، فذفر عن الرجل وعاد الى الأجمة ، خرج الرجل الى بين يدي والذي ، رحمه الله ، يضحك وقال : « يا

مولاي ، وحياتك ، ما جرحني ولا أذاني . وقتلوا الأسد ، وبخل
الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه الا انقطع قلبه .
فكنت أعجب من اقدام ذلك الكلب على الأسد ، وكل الحيوان ينفّر
من الأسد ويتجنبه .

ولقد رأيت رأس الأسد يحمل الى بعض دورنا فترى السنانير
تهرب من تلك الدار وترمي نفوسها من السطوحات ، وما رأت
الأسد قط ، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن الى سدفع
الباشورة فلا تقربه الكلاب ولا شيء من الطير ، وإذا رأت القيقان
اللحم نزلت اليه ثم دنت منه صاحت وطارت ، وما أشبه هيبه
الأسد على الحيوان بهيبه العقاب على الطير ، فان العقاب يبصره
الفروج الذي مارأى العقاب قط فيصبح وينهزم ، هيبه القاها الله
تعالى في قلوب الحيوان لهنين الحيوانين.

وعلى ذكر السباع كان عندنا أخوان من أصحابنا يقال لهما بنو
الرعام رجاله يترددان من شيزر الى اللاذقية - واللاذقية لعمي عز
الدولة أبي المرفه نصر ، وفيها اخوه عز الدين ابوالعساكر
سلطان ، رحمهما الله - بالكتب بينهما قالوا : «خرجنا من اللاذقية
فأشرفنا من عقبة الميعة ، وهي عقبة عالية تشرف على ما تحتها من
الوطا ، فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة ، فوقفنا
مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الأسد ، فرأينا رجلا قد
أقبل ، فصحنا اليه ولوحنا بثيابنا إليه نحذره من الأسد فما
سمعنا ، وأوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى ، فراه الأسد فوثب
إليه ، فضربه به ما أخطأ قلبه ، فقتله ، ومشى اليه فتمم
قتله ، وأخذ نشابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زربوله وقلع ثيابه
ونزل اغتسل في الماء ، ثم طلع لبس ثيابه ، ونحن نراه ، وجعل
يذفض شعره ليكشفه من الماء ، ثم لبس فردة زربوله واتكى على
جنبه وطول في الاتكاء ، فقلنا : والله ما قصر ، ولكن على من
يتيه؟ ، ونزلنا إليه وهو على حاله فوجدناه ميتا ما ندري ما
أصابه ، فنزعنا فردة الزربول من رجله وإذا فيه عقرب صغيرة قد

لسعته في ابهامه ، فمات لوقته ، فعجبا من ذلك الجبار الذي قتل الأسد وقتله عقرب مثل الاصبع ، فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق

قلت: قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها ما شركني في قتلها احد ، سوى ما شاركني فيه غيري ، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري ، فمن ذلك ان الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ، ما لم يخرج فحينئذ هو الأسد ، وذلك الوقت يخاف منه ، وإذا خرج من غاب أو أجمه وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع الى الأجمة التي خرج منها ، ولو أن النيران في طريقه ، وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة ، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه ، قبل ان يجرح ، فإذا رجع تركته الى ان يتجاوزني وطعنته ، قتلته •

فأما النمر فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبعده وثبتها ، وهي تدخل في المغارات والمجاحر كما تدخل الضباع ، والأسد ما تكون الا في الغابات والآجام ، وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها معرZF (٩٥) من أعمال شيزر ، فركب اليه عمي عز الدين ، رحمه الله ، وأرسل إلي فارسا وأنا راكب في شغل لي يقول: «الحقني الي معرZF» ، فلحقته وجئنا الى الموضع الذي زعموا ان النمر فيه ، فما رأيناه ، وكان هناك جب ، فنزلت عن حصاني ومعني قنطارية وجلست على فم الجب ، وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كالحجر . فحركت القنطارية في ذلك الخرق الذي في الجب فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطارية ، فلما علمنا انه في ذلك الموضع نزل معني بعض اصحابنا ، وصار بعضنا يحرك ذلك الموضع بالرمح ، فاذا خرج طعنه الآخر ، وكلما اراد الصعود من الجب اوثقناه بالرمح ، حتى قتلناه ، وكان خلقة عظيمة ، إلا انه كان قد أكل من دواب القرية حتى عجز عن نفسه ، وهو دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعاً •

وقد كان في كنيسة حناك (٩٦) طاقة في ارتفاع اربعين ذراعا ، فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب اليها ينام فيها الى آخر النهار ، ويثب منها ينزل ويمضي ، ومقطع حناك ذلك الوقت فارس افرنجي يقال له سير آدم من شياطين الافرنج ، فأخبروه خبر النمر فقال: «إذا رأيتموه أعلموني» فجاء النمر كعادته وثب الى تلك الطاقة ، فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم ، فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء الى الكنيسة وهي خراب ، إنما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة ، فلما رآه النمر وثب من الطاقة عليه ، وهو على حصانه فكسر ظهره وقتله ومضى. فكان فلاحو حناك يسمونه النمر المجاهد .

ومن خواص النمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فأرة مات ، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر ، حتى أنه يعمل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنانير خوفا عليه من الفأرة .

والنمر لا يكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهم ، وقد كنت مرة مجتازا بمدينة حيفا من الساحل ، وهي للأفرنج ، فقال لي افرنجي منهم : «تشتري مني فهذا جيذا؟» قلت: «نعم» ، فجاءني بنمر قد رباه حتى صار في قد الكلب ، قلت: «لا» ما يصلح لي ، هذا نمر ما هو فهد فعجبت من أذسه وتصرفه مع الأفرنجي .

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب ، وعينه زرق ، والفهد وجهه مدور وعينه سود ، وقد كان بعض الحلبيين أخذ نمرا وجاء به في عدل (٩٧) الى صاحب القدموس ، وهو لبعض بني محرز ، وهو يشرب ، ففتح العدل ، فخرج النمر على من في المجلس . فأما الأمير فكان عند طاقة في البرج دخل منها وغلق عليه الباب ، وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم الى أن قتلوه .

وسمعت وما رأيت أن في السباع الببر (٩٨) ، وماكنت أصدق

ذلك ، فحدثني الشيخ الامام حجة الدين أبوهاشم محمد بن محمد ابن ظفر ، رحمه الله ، قال: «سافرت من المغرب ومعني غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرب الامور ، ففرغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث ، إنما نحن أنا وهو على نجيبين ، فقصدنا ماء في طريقنا فوجدنا عليه الببر وهو نائم فاعتزلنا عنه ، ونزل صاحبي عن جملة وأعطاني زمامه وأخذ سيفه وترسه وقربة معنا وقال لي: احتفظ برأس النجيب ، ومشى الى الماء ، فلما رآه الببر قام ووثب مستقبلة حتى تجاوزه . ثم صاح فثارت اليه مجريات له عدوا لحقوه . وما عارضنا ولا أذانا ، فشربنا وأسقينا ثم مضينا .»

وهكذا حدثني ، رحمه الله ، وكان من خيار المسلمين في بيته وعلمه . (٩٩)

(تجارب حربية)

ومن عجيب الأجال لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الذقل ، وتبلغ حجرها ما لا تبلغه الذشابة ، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا ، ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له يوسف بن أبي الغريب ، رحمه الله ، بفلت فوق (١٠٠) فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد ، وكان على بـرج في دار الأمير ، قنطارية فيها راية منصوبة ، وطريق الناس في الحصن من تحتها ، ف ضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرهما من نصفها ، وانقلب كسرهما الذي فيه السنان تنكس ووقع الى الطريق ، ورجل من أصحابنا عابر ، فوقع السنان من ذلك العلو وفيه نصف القنطارية في ترقوته خرج الى الأرض وقتله .

وحدثني خطلخ مملوك لوالدي ، رحمه الله تعالى ، قال : « كنا في حصار الروم جلوسا في دهليز الحصن بعدنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو وقال: « يا مسلمين الحريم! بخل الروم معنا » فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجندناهم قد طلوعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق . ف ضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم ، وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم ، وعدنا ففترقنا ، وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزعنا ، فوقف وأدار وجهه الى الحائط يريق الماء ، فأعرضت عنه ، فسمعت وجبة ، فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرتة والصقته بالحائط ، ومخه قد سال على الحائط ، فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه ، رحمه الله »

وضربت حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا كسرت رجله ، فحملوه

الى بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن ، فقال: «هاتوا
المجبر » ، وكان بشيزر رجل صانع يقال له يحيى صانع في
التجبير ، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب
الحصن ، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته ، فدخل
المجبر الى الدهليز فقال عمي : «ما اسرع ما جبرته» ! ، قال: «يا
مولاي ، جاءت حجرة ثانية أغنته عن التجبير».

قصد الفرنج دمشق

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار أن الافرنج ، خذلهم
الله ، أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها ، فاجتمع
منهم خالق كثير . وسار اليهم صاحب الرها وقتل باشر وصاحب
أنطاكية ، فنزل صاحب أنطاكية على شيزر في طريقه الى
دمشق ، وقد تباعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها
واشترأها البرجاسية ووزنوا لهم أثمانها وما عندهم شك في فتحها
وملكها ، وكفر طاب اذ ذاك لصاحب أنطاكية ، فجرد من عسكره
مائة فارس انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل
حماة ، فلما سار الى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد
كفرطاب ، وأنفذوا رجلا من أصحابنا يقال له قتيب بن
مالك ، فجس لهم كفرطاب في الليل ، فوصلها دارها وعاد وقال:
«ابشروا بالغنيمة والسلامة»..

فسار المسلمون اليهم فالتقوا على بتكين ، فنصر الله سبحانه
الاسلام وقتلوا الافرنج جميعهم ، وكان قتيب الذي جس لهم
كفرطاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة ، فلما ظفروا بالافرنج
وقتلوهم طمع في اخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا ان يفوز
بالغنيمة وحده ، فمضى يركض الى الخندق ، فرمى عليه رجل من
الافرنج من الحصن حجرا فقتله ، وكانت له عنننا والدة عجوز كبيرة
تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها ، فكانت اذا ندبت على ابنها قتيب

تندفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها ، فاذا فرغت من نديها عليه
وسكنت لوعتها عادت ثدياها كالجلتين ما فيهما قطرة
لبن ، فسبحان من اشرب القلوب الحنية على الاولاد .

ولما قيل لصاحب انطاكية وهو على دمشق: « قد قتل المسلمون
اصحابك » ، قال: « ما هو صحيح ، قد تركت بكفرطاب مائة فارس
تلتقي المسلمين كلهم » .

وقضى الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نصروا على
الافرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا جميع دوابهم ، فدخلوا
عن دمشق أسوأ رحيل وأذله ، والحمد لله رب العالمين .

ومن عجيب ما جرى في تلك الواقعة بالافرنج انه كان في عسكر
حماة اخوان كربيان اسم الواحد بدر واسم الآخر عناز ، وكان هذا
عناز ضعيف النظر ، فلما كسر الافرنج وقتلوا قطعوا رؤوسهم
وشدوها في سموط خيلهم ، وقطع عناز رأسا وشده في
سموطه ، فراه ، قوم من عسكر حماة فقالوا له: « يا عناز ، اي شيء
هذا الرأس معك ؟ » قال: « سبحان الله لما جرى بيني وبينه حتى
قتله » ، قالوا له: « يا رجل ، هذا رأس أخيك بدر! » فنظره
وتأمله ، فإذا هو رأس أخيه ، فاستحيى من الناس وخرج من
حماة ، فما ندري اين قصد ولا عنا سمعنا له خبرا ، وكان أخوه
بدر قتل في تلك الواقعة قتله الافرنج ، خذلهم الله تعالى .

اذكرني ضرب حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ رحمه الله ، ضرب
السيوف الماضية ، فمن ذلك أن رجلا من اصحابنا يقال له همام
الحاج التقى هو ورجل من الاسماعيلية ، لما عملوا على حصن
شيزر ، في رواق في دار عمي ، رحمه الله ، وفي يد الاسماعيلي
سكين والحاج في يده سيف ، فهجم عليه الباطني بالسكين ، فضربه
همام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخه على الارض
فانبسط عليها وتطاير ، فوضع همام السيف من يده وتقيأ ما في

بطنه لما لحقه من نظر ذلك المخ من الغثيان ، واقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي فهجم علي بالسيخ فضربته في وسط ساعده ، والسيخ في يده قبضته ونصله لاصق بساعده ، فقطع قد أربع أصابع من نصل السيخ وقطع الساعد من نصفه ، فأبانه ، وبقي أثر فم السيخ في حد السيخ ، فراه صانع عندنا فقال: « انا أخرج هذا الثلم منه » ، قلت: « دعه كما هو ، فهو أحسن ما فيه » وهو الى الآن اذا راه الانسان علم انه اثر سكين

ولهذا السيخ خبر انا ذاكره

كان للوالد ، رحمه الله ركابي يقال له جامع فساغار الفرنج علينا ، فلبس الوالد كزاغنده وخرج من داره ليركب ، فما وجد حصانه ، فوقف ساعة ينتظره ، فوصل جامع الركابي بالحصان ، وقد ابطأ ، فضربه الوالد بهذا السيخ وهو في غمده متقلد به ، فقطع الجهاز والنعل الفضة وبشتا (١٠) كان على الركابي وصوفية وعظم مرفقة ، فرميت يده • فكان رحمه الله يقوم به وبأولاده بعد تلك الضربة ، وكان السيخ يسمى الجامعي باسم ذلك الركابي .

ومن ضربات السيوف المذكورة أن أربعة أخوة من أذساب الأمير افتخار الدولة أبي القدوح بن عمرو بن صاحب حصن ابو قبيس صعدوا اليه الحصن وهو نائم أوثقوه بالجراح ، وما معه في الحصن غير ابنه ، ثم خرجوا وهم يظنون أنهم قد قتلوه يريدون ابنه ، وكان هذا افتخار الدولة قد آتاه الله من القوة أمرا عظيما ، فقام من فراشه عريانا ، وسيفه معلق في البيت معه ، فأخذه وخرج اليهم ، فلقيه واحد منهم وهو مقدمهم وشجاعهم ، فضربه افتخار الدولة بالسيف وقفز من مقابله خوفا من ان يصل اليه بسكين كانت في يده ، ثم التفت اليه فوجده ملقى قد قتله بذلك الضربة ، وصار الى الآخر ضربة قتله.

وانهزم الاثنان الباقيان ، فرميا انفسهما من الحصن ، فمات احدهما ونجا الآخر .

وأتانا الخبر إلى شيزر . فذفنا من هنا بالسلامة . وطلعنا بعد ثلاثة أيام إلى حصن أبو قبيس لعيادته ، فان اخته كانت عند عمي عز الدين وله منها أولاد ، فحدثنا حديثه وكيف كان أمره ، ثم قال « متن كدفي يحكني ، وما أصل اليه » ، ودعا غلاما له ليبصر ذلك الموضوع أي شيء قرصه فيه ، فنظر فاذا هو جرح وفيه رأس دشن (١٠٢) قد اندكر في ظهره ، وما معه منه علم ولا أحس به ، فلما قاح حكه .

وكان من قوة هذا الرجل أنه كان يمسك رسغ رجل البغل ويضرب البغل فلا يقدر يخلص رجله من يده ، ويأخذ المسمار البيطارى بين أصابعه وينفذه في دف خشب البلوط ، وكان أكله مثل قوته لابل أعظم .

قد ذكرت شيئا من أفعال الرجال ، وسأذكر شيئا من أفعال النساء ، بعد بساط أقدمه .

وذلك أن أنطاكية كانت لـشيطان من الافرنج يقال له روجار ، فمضى يحج إلى البيت المقدس ، وصاحب البيت المقدس بغدوين الرويس وهو رجل شيخ ، وروجار شاب ، فقال لبغدوين « اجعل بيني وبينك شرطا ، إن مت قبلك كانت أنطاكية لك ، وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي » ، فتعاقدا وتوثقا على ذلك .

وقدر الله تعالى أن نجم الدين ايلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، لقي روجار بدانيث يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة فقتله وقتل جميع عسكره ، ولم يدخل أنطاكية منهم إلا دون العشرين رجلا . وسار بغدوين إلى أنطاكية فتسلمها .

وضرب مع نجم الدين مصافا بعد أربعين يوما ، وكان إيلغازي اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما ، فشرب بعد كسر الافرنج وقتلهم وبخل في الخمار فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين الرويس إلى أنطاكية بعسكره .

فكان المصاف الثاني بينهما على السواء ، كسر بعض الافرنج بعض المسلمين ، وكسر بعض المسلمين بعض الافرنج ، وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة ، وأسر المسلمون روبرت صاحب صهيون وبلاطندس (١٠٣) وتلك الناحية ، وكان صديقا لاتابك طغديكين صاحب دمشق ذلك الوقت ، وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالافرنج في أفامية حين وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق ، فقال هذا روبرت الابرس لاتابك طغديكين : « ما أدري بأي شيء أضيفك ، ولكن قد ابحتك بلادي ، انفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلما وجدوه ، بس لايسبوا ولا يقتلوا ، الدواب والمال والغلة لهم يأخذون ذلك مباحا لهم » ، فلما أسر روبرت ، وأتابك طغديكين حاضر المصاف في معونة ايلغازي ، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار فقال إيلغازي : « امضوا به إلى اتابك لعله يفزعه فيزيدينا في القطيعة » ، فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب ، فلما رآه مقبلا قام شمر أنيال قبائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه ضرب رقبتة ، فنفذ إليه إيلغازي يعتب عليه وقال : « نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركمان ، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار دفنفته إليك تفزعه لعله يزيدينا في القطيعة ، قتلته ! » قال : « انا ما أحسن افزع الا كذا »

ثم ملك بغدونين الرويس أنطاكية . وكان لأبي وعمي ، رحمهما الله ، عليه جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بك ، رحمه الله ، وصار بعد قتل بك إلى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي ، فحملة إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعه ، فأحسننا إليه . فلما ملك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطعية سامحنا بها . وصار أمرنا في أنطاكية نافذا .

فهو فيما هو فيه ، وعنده رسول من أصحابنا ، إذ وصل مركب
الى السويبية فيه صبي عليه اخلاق ، فحضر عنده وعرفه انه ابن
بيموند ، فسلم انطاكية اليه وخرج منها ضرب خيمه في ظاهرها ،
فحلف لنا رســـــولنا الذي كان عنده انه - يعني الملك
بغديون - اشترى عليق خيله تلك الليلة من السوق ، وأهراء انطاكية
ملأى من الغلة . ورجع بغديون الى القدس .

وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن بيموند بلية عظيمة ،
فنزل علينا يوما من الايام بعسكره ، فضرب خيامه ، ونحن قد ركبنا
مقابلهم ، فما خرج إلينا منهم أحد ونزلوا في خيامهم ، ونحن ركاب
على شرف نبصرهم ، وبيننا وبينهم العاصي ، فنزل من بيننا ابن
عمي ليث الدولة يحيى بن مالك بن حميد ، رحمه الله ، يسير الى
العاصي ، فظنناه يسقي فرسه ، فحاض الماء وعبر وسار نحو موكب
للافرنج واقف بالقرب من خيامهم ، فلما بنا منهم نزل اليه فارس
واحد ، فحمل كل واحد منهما على صاحبه ، وراغ كل واحد منهما
عن طعنة الآخر ، فتسرعنا أنا وأمثالي من الشباب ذلك الوقت
إليهما ، ونزل الموكب وركب ابن بيموند وعسكره وجاؤوا كالسيل ،
وصاحبنا قد طعنت فرسه ، فالتقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم . وفي
اجنابنا رجل كردي يقال له ميكائيل قد جاء في أوائل خيلهم منهزما ،
وخلفه فارس أفرنجي قد لزه ، وللكردي بين يديه ضجيج وصياح
عال ، فلقيته ، فمال عن ذلك الفارس الكردي وزل عن طريقي وقصد
خيلا لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا ، وأنا خلفه أجهد أن
يلدقه حصاني فأطعنه ، فلا يلدقه ، ولا الأفرنجي يلتفت إلي إلا
يريد تلك الخيل المجتمعة الى أن وصل الى خيلنا ، وأنا تابعه .
فطعن أصحابي حصانه طعنة أو ثقتة وأصحابه في إثره في جمع ما لنا
بهم قوة ، فرجع الفارس وحصانه في آخر رمقه التقاهم فربهم
جميعهم ، وعاد ، وهم معه ، وكان الفارس ابن بيموند « صاحب
انطاكية وهو صبي قد امتلا قلبه من الرعب ، ولو ترك أصحابه
هزمونا إلى أن يدخلونا المدينة .

كل ذلك وأمة عجوز يقال لها بركة مملوكة لرجل كردي من أصحابنا يقال له علي بن محبوب واقفة بين الخيل على شط النهر في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس ، وأكثر أصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الأفرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة وتلك الشيطانة واقفة لا يرونها ذلك الأمر العظيم .

وأنا ذاكر شيئاً من أمر هذه بركة ، وإن لم يكن موضعه ، لكن الحديث شجون كان مولاهما علي يتسبين ولا يشرب الخمر ، فقال لوالدي يوماً « والله ، يا أمير ، ما استحل أكل من الديوان ولا أكل إلا من كسب بركة » ، وهو الجاهل يظن أن ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هو مستأجر به .

وكانت هذه الامة لها ولد اسمه نصر رجل كبير ، وكليلاً في ضيعة للوالد ، رحمه الله ، وهو رجل يقال له بقية بن الأصيهر .

حدثني قال : « دخلت في الليل إلى البلد أريد الدخول إلى داري في شغل لي ، فلما دنوت من البلد رأيت بين المقابر في ضوء القمر شخصاً ما هو آدمي ولا هو وحش ، فوقفت عنه وتهيبه ، ثم قلت في نفسي : « ما أنا بقية ! ما هذا الخوف من واحد ؟ » فوضعت سيفي ودرقتي والحربة التي معي ومشيت قليلاً قليلاً ، وأنا اسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتا ، فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشني فقبضته ، وإذا بها بركة مكشوفة الرأس قد نفشت شعرها وهي راكبة قسبة تصهل بين المقابر وتجول ، قلت : « ويحك ! أي شيء تعملين في هذا الوقت ها هنا ؟ » قالت : « أسحر » قلت : « قبحك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع ! »

اذكرني قوة نفس هذه الكلبة بأمر جرت للنساء في الواقعة التي كانت بيننا وبين الاسماعيلية ، وإن لم تكن سواء

لقي في ذلك اليوم مقدم القوم علوان بن حراز ابن عمي سنان

الدولة شبيب بن حامد بن حميد ، رحمه الله في الحصن ، وهو تربى ولدتى ولدت أنا وهو في يوم واحد يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة إلا أنه ما باشر الحرب حتى ذلك اليوم ، وأنا كنت قطبها ، فأراد علوان اصطناعه .

فقال له : « ارجع الى بيتك ، احمل منه ما تقدر عليه ورج لا تقتل ، فالحصن قد ملكناه » ، فرجع الى الدار وقال : « من كان له شيء يعطيني إياه - يقول ذلك لعمته ونساء عمه - فكل منهم اعطاه شيئاً ، فهو في ذلك وإذا انسان قد دخل الدار عليه زربية وخونة ومعه سيف وترس ، فلما راه أيقن بالموت ، فوضع الخونة ، وإذا هي أم ابن عمه ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، فقالت : « أي شيء تريد تعمل ؟ » قال : « أخذ ما قدرت عليه ، وأنزل من الحصن بحبل ، وأعيش في الدنيا » ، قالت : « بدس ما تفعل ، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح ؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم ؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك وفعل » ، ومنعته ، رحمها الله ، من الهرب . وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك .

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاغنداتي ، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن ، وقالت : « البسي خفك وإزارك » فلبست وأخذتها الى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن ، ونصرنا الله سبحانه عليهم ، وجئت إلى داري اطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف وعيب الكزاغندات ، قلت : « يا أمي ، أين سلاحي ؟ » قالت : « يا بني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سالماً » . قلت : « فأختي أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت : « يا بني ، أجلستها على الروشن وجلست برا منها ، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » ، فشكرتها على ذلك

وشكرتها الاخوت وجزتها خيرا ، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال .

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جوارى جدي الامير أبي الحسن علي ، رحمه الله ، يقال لها فتون . فأخذت سيفاً وخرجت إلى القتال ، وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم .

وما ينكر للنساء الكرام الانفة والنخوة والاصابة في الرأي .

ولقد خرجت يوما من الايام مع الوالد ، رحمه الله ، إلى الصيد ، وكان مشغوفاً بالصيد عنده من البزاة والشواهين والصدقور والفهود والكلاب الزغارية ما لا يكاد يجتمع عند غيره ، ويركب في أربعين فارساً من أولاده ومماليكه كل منهم خبير بالصيد عارف بالقنص ، وله بشير متصيدان : يوما يركب إلى غربي البلد إلى أزوار وأنهار فيتصيد الدراج وطير الماء والارانب والغزلان ويقتل الخنازير ، ويوما يركب إلى الجبل قبلي البلد يتصيد الحجل والارانب ، فنحن في الجبل يوما وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلي فرادى ، وإذا غلام قد جاء يركض قال : « هذا الاسد » ، فسلمت قبل الوالد ، رحمه الله ، لكيلا يمنعني من قتال الاسد ، وركبت ومعني رمحي فحملت عليه ، فاستقبلني وهدر ، فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لثقله وطربني شوطاً جيداً ، ثم رجع إلى سفح الجبل وقف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة ، جائع ، وكلمنا بذونا منه نزل من الجبل طرد الخيل وعاد إلى مكانه . وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا .

ولقد رأيته ركب مع رجل من غلمان عمي يقال له سبتكين غرزة على وركي حصانه وخرق بمخالبه ثيابه ورائاته وعاد إلى الجبل ، فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعدت فوقه في سفح الجبل ، ثم صدرت حصاني عليه فطعنته نذفت الرمح فيه وتركته في جانبه ، فتقلب إلى أسفل الجبل والرمح فيه ، فمات الاسد ، وانكسر الرمح ، والوالد ،

رحمه الله واقف يرانا ومعه أولاد أخيه عز الدين يبصرون ما يجري ، وهم صبيان .

وحملنا الاسد ودخلنا البلد العشاء ، واذا جدتي لأبي ، رحمها الله ، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة - وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة - فما شككت انها قد جاءت تهنئني بالسلامة وتعرفني مسرتها بما فعلت ، فلقيتها وقبلت يدها فقالت لي بغيظ وغضب : « يا بني ، ايش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بذفسك وحصانك وتكسر سلاحك ، ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفورا ؟ » قلت « يا ستي ، إنما اخاطر بذفسي في هذا ومثله لا تقرب إلى قلب عمي » ، قالت : « لا والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعدا ويزيده منك وحشة ونفورا » ، فعلمت أنها ، رحمها الله ، نصحتني في قولها وصدقني ، ولعمري إنهن أمهات الرجال .

ولقد كانت هذه العجوز ، رحمها الله ، من صالحى المسلمين من الدين والذمة والصوم والصلاة على أجمل طريقة ، ولقد حضرتها ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي ، وكان رحمه الله ،
من يتلو كتاب الله تعالى ، ووالدته تصلي بصلاته ، فأشفق عليها فقال : « يا أمي لو جلست صليت من قعود » ، قالت : « يا بني ، بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هذه الليلة ؟ لا والله ، ما اجلس » . وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة وهي قد شارفت المائة سنة ، رحمها الله .

وشاهدت من نخوات النساء عجبا ، وهو أن رجلا من أصحاب خلاف بن ملاعب يقال له علي عبد بن أبي الرياء كان قد رزقه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة ، فكان ينهض مع ابن ملاعب يبصر القوافل على مسيرة يوم كامل .

ولقد حدثني رجل من رفاقه يقال له سالم العجائزي ، انتقل إلى

خدمة والذي بعد ما قتل خلف بن ملاعب قال : « نهضنا يوما وأرسلنا عليا عبد بن أبي الريداء بكرة يدبب لنا (١٠٤) ، فجاءنا وقال : « ابشروا بالغنيمة ! هذه قافلة كثيرة مقبلة ، فنظرنا ما رأينا شيئا ، فقلنا : « ما نرى قافلة ولا غيرها ، قال : « والله ، إنني لأرى القافلة وقدامها فرسان مجنبان يذفضان معارفهما ، فأقمنا في الكمين إلى العصر ، فوصلتنا القافلة والفرسان المجنبان قدامها فخرجنا أخذنا القافلة » .

وحدثني سالم العجائزي قال : « نهضنا يوما وصعد علي عبد ابن أبي الريداء يدبب لنا ، فنام ومادى إلا أخذه تركي من سرية أترك ناهضه وقالوا : « أي شيء أنت ؟ » قال : « أنا رجل صعلوك قد اكريت جملي لرجل من التجار في القافلة ، أعطني يدك أنك تعطيني جملي حتى أدلكم على القافلة ، فأعطاه مقدمهم يده ، فمشى بين أيديهم إلى أن أوصلهم إلينا إلى الكمين ، فخرجنا عليهم أخذناهم ، وتعلق هو بالذي كان بين يديه أخذ فرسه وعدته ، وغنمنا منهم غنيمة حسنة » .

فلما قتل ابن ملاعب انتقل علي عبد بن أبي الريداء إلى خدمة توفيل الافرنجي صاحب كفرطاب ، فكان ينهض بالافرنج إلى المسلمين يغزمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين ، وله امرأة معه بكفرطاب تحت يدي الافرنج تذكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي ، فذفنت أحضرت نسيبا لها من بعض الضياع ، وأظنه أخاها ، وأخفته في البيت إلى الليل ، واجتمعت هي وهو على زوجها علي عبد بن أبي الريداء قتلاه ، واحتملا بجميع مالها .

وأصبحت عندنا بشيزر ، وقالت : « غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر » ، فأراحت الناس من هذا الشيطان ، ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام .

وكان في أمراء مصر رجل يقال له بدي الصليحي في وجهه ضربتان الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه ، فسأله عنهما فقال . « كنت انهض وأنا شاب من عسقلان ، وأنا راجل ، فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس أريد حجاج الافرنج ، فصادفنا قوما منهم ، فلقيت رجلا معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء . فطعني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلته فمشيت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرححتني هذا الجرح الآخر فوسما وجهي .

ومن إقدام النساء أن جماعة من الافرنج الحجاج حجوا وعادوا الى رمنية ، وكانت ذلك الوقت لهم ، وخرجوا منها يريدون أفامية ، فتأهوا في الليل وجاءوا الى شيزر وهي اذناك بغير سور ، فدخلوا المدينة وهم في نحو من سبع مائة ثمان مائة رجال ونساء وصبيان ، وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع ، رحمهما الله ، ليلقيا عروسين قد تزواجهما من بني الصوفي الحلبيين أختين والدي رحمه الله في الحصن ، فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى أفرنجيا ، فعاد أخذ سيفه وخرج قتله ، ووقع الضياح في البلد ، وخرج الناس فقتلوههم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهائم .

وفي شيزر امرأة من نساء اصحابنا يقال لها نضرة بنت بدوز رماط خرجت مع الناس أخذت أفرنجيا أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها ، وعادت خرجت أخذت آخر ، فاجتمع عندها ثلاثة من الافرنج ، فاخذت ما كان معهم وما صليح لها من سلبهم وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوههم .

ووصل عمالي والعسكر في الليل ، وقد كان انهزم من الافرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوههم في ظاهر البلد ، فصارت

الخيـل تعثر في الليل في القتلـى ، ولا يدرون بماذا تعثر ، حتى ترجـل
أحدهم وأبصر القتلـى في الظلام ، فهالهم ذلك واعتقدوا أن البلد قد
كبس .

وكانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس ، فصار إلى دار
والدي ، رحمه الله ، عدة من الجواري من سبيهم ، وهم ، لعنهم
الله ، جنس ملعون لا يـألفون لغير جنسهم ، فرأى منهم جارية مليحة
شابة فقال لقهرمانه داره : « ادخلي هذه الحمام ، واصلحي
كسوتها ، واعلمي شغلها للسفر » ، ففعلت ، وسلمها إلى بعض
خدامه وسيرها إلى الامير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك
صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه ، وكتب إليه يقول : « غمنا من
الافرنج غنيمة قد نفذت لك سهما منها » ، فوافقته وأعجبته واتخذها
لنفسه ، فولدت له ولدا سماه بدران فجعله أبوه ولي عهده ، وكبر
ومات والده ، وتولى بدران البلد والرعية وأمه الأمرة الناهية ،
فواعدت قوما وتدلّت من القلعة بحبل ومضى بها أولئك الى سروج ،
وهي إذ ذاك للافرنج ، فتزوجت بافرنجي اسكاف وابنها صاحب
قلعة جعبر .

وكان في أولئك الذين صاروا الى دار والدي امرأة عجوز ومعها
بنت امرأة شابة حسنة الخلقة وابن مشدد ، فاسلم الابن وحسن
اسلامه فيما يرى من صلاته وصومه ، وتعلم الترخيم من مرخم كان
يرخم دار والدي ، فلما طال مقامه زوجته الوالد بامرأة من قوم
صالحين ، وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته ، فرزق منها ولدين
وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين ، والغلام راوول
أبوهما مسرور بهما ، فأخذهما وامهما وما في بيته وأصبح بافامية
عند الافرنج ، وتنصر هو واولاده بعد الاسلام والصلاة والدين ،
قاله تعالى يظهر الدنيا منهم .

(طبائع الافرنج و اخلاقهم)

سبحان الخالق الباري ، إذا خير الانسان أمور الافرنج سبيح الله تعالى وقده ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل ، وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم .

كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم أفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود ، فأدس بي وصار ملازمي يدعوني « أخي » وبيننا المودة والمعاشرة ، فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده قال لي : « يا أخي ، أنا سائر الى بلادي ، وأريدك تنفذ معي ابنك ، وكان ابني معي ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل » ، فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن ابني لو أسر ما بلغ به الاسر أكثر من رواحه إلى بلاد الافرنج ، فقلت : « وحياتك ، هذا الذي كان في نفسي ، لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه وماتركته يخرج معي حتى استحلقتني أني أردته إليها » ، قال : « وأمك تعيش؟ » قلت : « نعم » قال : « لا تخالفها »

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة (١٠٥) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : « ما أسرع ما داويت المرضى ! » قال : « أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس ليخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطب مزاجها . فجاءهم طبيب أفرنجي فقال لهم : « هذا ما يعرف شيء يداويهم » وقال للفارس : « أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ » قال : « أعيش برجل واحدة » قال : « احضروا لي فارساً قويا وفأساً قاطعاً » . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط

ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها » فحلقوه ، وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها الذشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموصى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه .

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد ، لعنه الله ، من ألعي الافرنج وأرجسهم ، فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعا ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب أفرنجي فزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان .

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح ، له ولد قد طلع في رقبته خنازير ، وكلما ختم موضع فتح موضع ، فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه ، فراه رجل أفرنجي فساله عنه فقال : « هو ولدي » ، قال : « تحلف لي ببنيك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه ؟ » فداف . فقال : « تأخذ له اشنانا غير مطحون تحرقه وتربيه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع ، ثم خذ الرصاص المحرق ورببه بالسمن ، ثم داوه به فهو يبرئه » ، فداواه بذلك فبرأ ، وختمت تلك الجراح . وعاد إلى ما كان عليه من الصحة .

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فذفعه وأزال ما كان يشكوه .

فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين .

فمن جفاء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس ، دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة ، فكنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية ، وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه ، فدخلته يوما فـ

ووقفت في الصلاة . فهجم علي واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق وقال : « كذا صل ! » فتبادر قدوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني ، وعدت أنا الى الصلاة ، فاغفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي الى الشرق وقال : « كذا صل ! » ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلي ، وقالوا : « هذا غريب وصل من بلاد الافرنج في هذه الايام ، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق » ، فقلت : « حسبي من الصلاة ! » فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لدقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

ورأيت واحدا منهم جاء إلى الامير معين الدين ، رحمه الله ، وهو في الصخرة فقال : « تريد تبصر الله صغيرا ؟ » قال : « نعم » ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها ، فقال : « هذا الله صغير » ، تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامراته يلاقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أنني كنت اذا جئت الى نابلس أنزل في دار

رجل يقال له معز، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح الى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الاخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول : « فلان التاجر قد فتح بتيه(١٠٦) من هذا الخمر . من اراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا » ، واجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة ، فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش فقال له : « أي شيء ادخلك إلى عند امرأتي ؟ » قال : « كنت تعبانا دخلت استريح » ، قال : « فكيف دخلت الى فراشي ؟ » قال : « وجدت فراشا مفروشا نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » ، قال : « الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ » قال : « وحق ديني ، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وانت » ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي ، رحمه الله ، قال : « فتحت حماما في المعرة أتعيش فيها ، فدخل اليها فارس منهم ، وهم يذكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام ، فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه ، فرآني ، وأنا قريب عهد بحلق عانتي ، فقال : « سالم ، فقد قربت منه ، فمد يده على عانتي وقال : سالم ، جيد ! وحق بيني اعمل لي كذا » ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ، فحلقته فمر يده عليه فاستوطأه(١٠٧) فقال : « سالم ، بحق بيذك اعمل للداما » - والداما بلسانهم الست - يعني امرأته ، وقال لغلام له : « قل للداما تجيء ، فمضى الغلام أحضرها وأدخلها ، فاستلقت على ظهرها وقال : « اعمل كما عملت لي فحلق ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ووهبني حق خدمتي » .

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأذفة من سوء الاحدوثة .

ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمبينة صور فجلست في خلوة

فيها ، فقال لي بعض غلماني في الحمام : « معنا امرأة » ، فلما خرجت جاست على المصاطب وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم اتحقق أنها امرأة ، فقلت لواحد من أصحابي : « بالله أبصر هذه امرأة هي ؟ » وأنا اقصد أن يسأل عنها ، فمضى ، وأنا أراه ، رفع نيلها وطلع فيها ، فالتفت إلي أبوها وقال : « هذه ابنتي ، ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها ، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها » ، قلت : « جيد عملت ، هذا لك فيه ثواب » .

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبرية ، وكان مقدما فيهم ، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه ، فحدثنا في الطريق قال : « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ قال : « نعم »

ومشى معنا ، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي ، فلما رآه قال : « اعطوني شمعا ، فأحضرنا له قليل من الشمع ، فلينه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب أذنه ، فمات الفارس . فقلنا له : « قد مات » قال : « نعم ، كان يتعذب سددت أذنه حتى يموت ويستريح » .

دع ذا وعد القوم في هرم

نرجع من حديث مجاريهم :

حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخر خنزيرا سمطوه وطرحوه على صخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون منها ، والعجائز يقرمن ويقعن على كل خطوة ، وهم

يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهن ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها .

وشهدت يوما بنابلس وقد احضروا اثنين للمبارزة ، وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : « هو دل الحرامية على الضيعة » ، فهرب . فنفذ الملك فقبض أولاده ، فعاد إليه وقال : « انصفني ، أنا أبارز الذي قال عني أنني دللت الحرامية على القرية » ، فقال الملك لصاحب القرية المقطع : « أحضر من يبارزه » ، فمضى الى قريته وفيها رجل حداد فأخذه ، وقال له : « تبارز » اشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته ، فشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع ، يمشي ويجلي ويطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي الذفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء الإسكند (١٠٨) وهو شحنة البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة •

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد ، وهو يتأخر حتى يلجئه الى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم ، فطال الامر بينهما والإسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة ، ونفع الحداد إيمانه بضرب المطرقة ، واعبى ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله ، فطرحوا في رقبته في الوقت حبلا وجروه شذقوه ، وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف . وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، إلى القدس ، فنزلنا نابلس ، فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى

خدمته إلى دمشق ، ففعل ، وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت متزوجة لرجل أفرنجي فقتلته ، وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الأفرنج . جالسوا بتيه عظيمة وملأوها ماء ، وعرضوا عليها دف خشب ، وكثفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلا ورموه في البتية ، فإن كان برياً غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لايموت في الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص ، فما قدر ، فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله ، فكحلوه .

ثم إن الرجل وصل إلى دمشق فأجرى له الأمير معين الدين ، رحمه الله ، ما يحتاجه ، وقال لبعض غلمانه : « تمضي به إلى برهان الدين البلخي ، رحمه الله ، تقول له : تأمر من يقرئ هذا القرآن ، وشيئاً من الفقه » ، فقال له ذلك الأعمى : « النصر والغلب ، ما كان هذا ظني » ، قال : « وما ظننت بي » قال : « تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارساً » ، قال : « ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان » .

ومن الأفرنج قوم قد تبدلوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبى العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه .

فمن ذلك أننى نذت صاحباً إلى أنطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي وبينى وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في أنطاكية ، فقال لصاحبي يوماً : « قد دعاني صديق لي من الأفرنج ، تجيء معي حتى ترى زيهم » ، قال : « فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الأفرنج ، وقد اعتقى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة . ورأيت متوقفاً عن الأكل ، فقال : كل طيب النفس ، فأنا ما أكل من طعام الأفرنج ، ولي طبابخات مصريات ما أكل إلا من طبيخهن . ولا يدخل داري لحم خنزير ، فأكلت وأنا محتزر وانصرفنا .

- ٥٦٩١ -

فانا بعد مجتازا في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر
بلسانهم وما أدري ما تقول ، فاجتمع علي خلق من الافرنج ، فايقنت
بالهلاك ، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرأني ، فجاء فقال لتلك المرأة :
« ما لك ولهذا المسلم ؟ » قالت : « هذا قتل أخسي عرس وكان هذا
عرس فارسا بافامية قتله بعض جند حماة . فصاح عليها وقال :
« هذا رجل برجاسي - اي تاجر - لا يقاتل ولا يحضر القتال ،
وصاح على أولئك المجتمعين ، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى ، فكان
تأثير تلك المؤكلة خلاصي من القتل » .

من عجائب القلوب

ومن عجائب القلوب أن الانسان يخوض الغمرات ويركب الاخطار ولا يرتاع قلبه من ذلك ، ويخاف ما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان .

ولقد رأيت عمي عز الدين أبا العساكر سلطان ، رحمه الله ، وهو من أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة ، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزعم من نظرها ، وقام من الموضع الذي يراها فيه .

وكان في غلمانة رجل شجاع معروف بالشجاعة والاقدام اسمه صندوق ، يفزع من الحية حتى يخرج من عقله ، فقال له والدي ، رحمه الله ، وهو واقف بين يدي عمي : « يا صندوق ، أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحية ؟ » قال : « يا مولاي ، وأي شيء في هذا من العجب ؟ في حمص رجل شجاع بطل من الابطال يفزع من الفأرة ويموت » - يعني مولاه - فقال له عمي ، رحمه الله : « قبحك الله يا كذا كذا »

ورأيت مملوكا لوالدي ، رحمه الله ، يقال له لؤلؤ ، وكان رجلا جيدا مقداما ، وقد خرجت ليلة من شيزر ومعي بغال كثيرة وبهائم أريد أحمل عليها من الجبل خشبا قد قطعته هناك لنا عورة لي ، فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظن أن الصبح قد دنا ، فوصلنا إلى قرية يقال لها دبين (١٠٩) وما تنصف الليل ، فقلت : « انزلوا ما ندخل الجبل في الليل »

فلما نزلنا واستقرنا سمعنا صهيل حصان ، فقلنا . « الا فرنج ! » فركبنا في الظلام وأنا أحدث نفسي أنني اطعن واحدا منهم وأخذ حصانه ويأخذ دوابنا الرجال الذين مع الدواب ،

فقلت للؤلؤ وثلاثة من الغلمان : « تقدمونا ، اكشفوا هذا الصهيل » ، فتقدموا يركضون ، فلقوا أولئك وهم في جمع وسواد كثير ، فسبق اليهم لؤلؤ وقال : « تكلموا ، والا اقتلكم كلكم » ، وهو رام جيد ، فعرفوا صوته وقالوا « حاجب لؤلؤ ؟ » قال : « نعم » ، وإذا هم عسكر حماة مع الأمير سيف الدين سوار (١١٠) رحمه الله ، قد أغاروا على بلاد الفرنج وعادوا ، فكان هذا اقدامه على ذلك الجمع ، وإذا رأى في بيته حية خرج منهزما وقال لامراته : دونك والحية ، فتقوم إليها تقتلها .

والمحارب ، ولو أنه الاسد ، أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق ، كما أصابني على حمص ، جرحت وقتل حصاني ، وضربت خمسين سيفاً - كل ذلك لنفاذ المشيئة ، ثم لتواني الركابي في تركيب عنان اللجام ، فإنه عقده في الباشات (١١١) لم يشقه فلما جذبته أريد الخروج من بينهم انحل العنان من عقده في الباشات ، فنالني مانالني .

وقد كان صاح الصائح يوما بشيزر من القبلة ، فلبسنا وفزعنا ، فكان الصائح كذابا ، فرحل أبي وعمي ، رحمهما الله ، ووقفت بعدهما ، فوقع الصائح من الشمال من جانب الفرنج ، فركضت حصاني إلى الصائح ، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضا وقالوا : « الفرنج ! » فعبرت المخاض وقلت للناس : « لا بأس عليكم ، أنا دونكم ! » ، ثم طلعت أركض إلى رابي القرافة ، وإذا الخيل مقبلة في جمع كثير ، وقد تقدم منهم فارس لابس زرية وخوذة ، وقد دنا مني ، فقصدته استفرص بعده من أصحابه ، واستقبلني ، فحين حركت حصاني إليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقاءه فقامت إليه بلا ركاب ، فلما تدانينا ولم يبق غير الطعن سلم علي وخدمني وإذا هو الاسلار عمر خال الاسلار زين الدين اسماعيل بن عمر بن بختيار ، وكان نهض مع عسكر حماة إلى بلد كفر طاب ، فخرج عليهم الفرنج فعادوا إلى شيزر منهزمين ، وتقدمهم الأمير سوار ، رحمه الله .

فسييل الرجل المحارب يتفقد عدة حصانه ، فان أيسر الأشياء وأقلها يؤذي ويهلك ، كل ذلك مقرون بما تجري به الاقدار والاقضية .

وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصياها ، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها ، فما نالني من شيء منها أذى .

وخرجت يوما مع والدي ، رحمه الله ، إلى الصيد في جبل قريب من البلد نصيد منه الجبل بالبزاة ، ويكون الوالد ونحن معه والبازيارية على الجبل وبعض الغلمان والبازيارية أسفل من الجبل للتخليص من البزاة والوقوف على الذبيح ، فقامت لنا ضبعة فدخلت مغارة ، وفي تلك المغارة محجر دخلت فيه ، فصحت بغلام لي ركابي اسمه يوسف خلع ثيابه واخذ سكينه ودخل في ذلك المحجر ، وأنا في يدي قنطارية مستقبل الموضع إذا خرجت طعننها ، فصاح الغلام : « اليكم قد خرجت ! » فطعننها أخطأتها لأن الضبعة رفيقة الحجم ، فصاح الغلام « عندي ضبعة أخرى ! » فخرجت في إثرها ، فقامت وقفت في باب المغارة وهي ضيقة الباب متعالية قدر قامتين انظر ما يعمل اصحابنا النين في الوطا بالضباع التي نزلت اليهم ، فخرجت ضبعة ثالثة ، وأنا مشغول بالنظر إلى الاوائل ، فندستني (١١٢) رمتني من باب المغارة الى القرارة التي تحته فكانت تكسرنني ، فتأنيت بضبعة وما تأنيت بالسباع فسبحان مقدر الاقدار ومسبب الاسباب.

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظنه بالنساء ، فمن ذلك أنني كنت يوما على باب دار والدي ، رحمه الله ، وأنا صبي عمري دون العشر سنين ، فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبيبا من خدام الدار ، فانهزم منه وجاء تعلق بذيبي ، فلحقه وهو ماسك بذيبي فلطمه ، فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني ، فجذبت من وسطي سكيننا ضربته بها فوقع في بزه الايسر ، فوقع ، وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له القائد اسد فوقف

عليه ونظر الجرح واذا تنفس طلع منه الدم مثل فواق الماء ، فاصفر وارتمع ووقع مغشياً عليه ، فحمل الى داره وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال ، فما أفاق من غشيته إلى آخر النهار ، وقد مات المجروح وقبر .

ومما يقارب ذلك : كان يزورنا إلى شيزر رجل من أهل حلب فيه فضل وأدب يلعب بالشطرنج طبقة ، ويلعب بها غائباً ، يقال له أبو المرجى سالم بن قانت ، رحمه الله ، فكان يقيم عندنا السنة والأكثر والأقل ، فربما مرض فيصف له الطبيب الفصاد ، فاذا حضر الفاصد تغير لونه وارتمع ، فاذا فصد غشي عليه فلا يزال في غشيه حتى يشد فصاه ثم يفيق .

ومما يضاد ذلك أنه كان في أصحابنا من بني كنانة رجل أسود يقال له علي بن فرج طلعت في رجله حبة فتخبثت ، وتناثرت أصابعه وأنتنت رجله ، فقال له الجرائحي : « مالرجلك إلا القطع ، وإلا تلفت » ، فحصل عنده مذارا وجعل يذشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويغشى عليه ، فاذا هو أفاق عاد إلى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه ، وبأواها فبرأت .

وكان ، رحمه الله ، من أجلد الرجال وأقواهم ، فكان يركب في سرجه بركاب واحد ، وفي الجانب الآخر سير تكون فيه ركبتة ، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج وهو على تلك الحال ، وكنت أراه ، رحمه الله ، لا يستطيع رجل يشابهه ولا يقابضه ، وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته .

فأصبح يوماً من الايام ، وهو وبذو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر ، أرسل إلى رجال من وجوه بني كنانة فقال : « اليوم يوم مطير ، وعندي فضلة نبيذ ومأكل تتفضلون علي بالحضور لذشب » ، فاجتمعوا عنده ، فجلس في باب البيت وقال : « هل فيكم من يقدر يخرج من الباب إن لم أشأ ؟ » يشير إلى قوته ، قالوا : لا

والله » ، قال : « هذا يوم مطير ، وما أصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه ، أنفذوا الى دوركم أحضروا طعامكم ونبيذكم ، والبيت من عندي ، ونجتمع اليوم نشرب ونتحدث » ، قالوا كلهم : « نعم ما رأيت يا أبا الحسن ، وأنفذوا أحضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده ، وكان رجلا محترما ، فتعالى من خلق الخلق أطوارا ، أين جلد هذا وقوة نفسه من خور أولئك وضعف نفوسهم ؟ .

وقريب من هذا أن رجلا من بني كنانة حدثني بحصن الجسر أن رجلا في الحصن استسقى فشق بطنه فبرئ ، وعاد صحيحا كما كان ، فقلت أريد أبصره واستخبره ، وكان الذي حدثني رجلا من بني كنانة يقال له أحمد بن معبد بن أحمد ، فأحضر ذلك الرجل عندي ، فاستخبرته عن حاله وكيف فعل بنفسه فقال : « أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف ، وتبرمت بالحياة ، فأخذت موسى وضربت به فوق سرتي في عرض جوفي ، شققته ، فخرج منه قدر طباختين ماء - يعني قدرين - وما زال الماء يفيض منه حتى ضمير جوفي ، فخطبته وداويت الجرح فبرأ ، فزال ما كان بي » ، وأراني موضع الشق في جوفه أطول من شبر ، ولا شبهة إن هذا الرجل كان له في الأرض رزق يستوفيه .

والا فقد رأيت من استشفى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه من الماء كما خرج من الذي بزل نفسه ، إلا أنه مات من ذلك الفصد ، لكن الاجل حصن حصين .

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة زفير ولا نصير ، وقد كنت إذا بعثني عمي ، رحمه الله ، لقتال أتراك أو أفرنج أقول له : « يا مولاي ، أمرني بما أتدبر به إذا لقيت العدو » . فيقول : « يا بني ، الحرب تدبر نفسها » ، وصدق .

وكان أمرني أن أخذ امرأته وأولاده خاتون بنت تاج الدولة تتش

والعسكر وأمضى أوصلهم إلى حصن مصياث ، وهو إذ ذاك له ، وكان يشفق عليهم من حر شيزر ، فركبت وركب أبي وعمي ، رحمهما الله ، معنا إلى بعض الطريق ، وعادا وليس معهما إلا المماليك الصغار لجر الجنائب وحمل السلاح ، والعسكر كله معي ، فلما قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب ، فقالا : « شيء قد جرى في الجسر » فدفعا خيلهما تناقلا ونخبا (١١٣) إلى الجسر ، وكان بيننا وبين الافرنج ، لعنهم الله ، هدنة ، فذفدوا من كشف لهم مخاضة يعبرون منها إلى مدينة الجسر ، وهي في جزيرة لا يعبر إليها إلا من جسر معقود بالحجر والكلس لا يصل الافرنج إليه ، فدلهم ذلك الجاسوس على مخاضة ، فركبوا جميعهم من أقامية فأصبحوا إلى ذلك الموضع الذي دلهم عليه ، عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا وسبوا وقتلوا ، وذفدوا بعض السبي والنهب إلى أقامية وملكوا الدور ، وعلم كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته .

فلما أشرف أبي وعمي ، رحمهما الله ، على الحصن كبر أهل الحصن وصاحوا ، فالقى الله سبحانه على الافرنج الرعب والخذلان ، فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورموا خيلهم ، وهم بدروعهم عليها ، في غير مخاض ، ففرق منهم جماعة كثيرة ، كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء ويطلع الحصان ، ومضى من سلم منهم منهزمين لا يلاوي بعضهم على بعض ، وهم في جمع كثير ، وأبي وعمي معهما عشرة ممالك صبيان .

فاقام عمي بالجسر ورجع أبي إلى شيزر ، وأوصلت أنا وأولاد عمي إلى مصياث وعدت من يومي وصلت العشاء ، فأخبرت بما جرى ، فحضرت عند والدي ، رحمه الله ، وشاورته في أن أمضي إلى عمي إلى حصن الجسر ، قال : تصل في الليل ، وهم نيام . ولكن سر اليهم من بكرة . فأصبحت سرت وحضرت عنده . وركبنا وقفنا على ذلك الموضع الذي غرق فيه الافرنج .

ونزل إليه جماعة من السباح فأخرجوا جماعة من فرسانهم
-وتى ، فقلت لعمي : « يامولاي ، ما نقطع رؤوسهم ونذفنهما الى
شيزر ؟ » ، قال : « افعل » .

فقطعنا منهم نحو من العشرين رأسا ، فكان الدم يسيل منهم
كأنهم قد قتلوا تلك الساعة ، ولهم يوم وليلة ، وأظن الماء حفظ فيهم
دمهم •

وغزم الناس منهم سلاحا كثيرا من الزريات والسيوف
والقنطاريات والخوذ والكاسات الزرد ، ورأيت رجلا من فلاحي
الجسر ، قد حضر عند عمي ويده تحت ثيابه ، فقال له عمي يمزح
معه : « أي شيء اعزلت لي من الغنيمة ؟ » قال : « اعزلت لك حصانا
بعدته وزريته وترسا وسيفا » ، ومضى أحضر الجميع ، فأخذ عمي
العدة وأعطاه الحصان وقال : « أي شيء بيدك ؟ » قال : « يامولاي ،
تقابضت أنا والافرنجي وما معي علة ولا سيف فرميته ولكمت وجهه
وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته ، واخذت سيفه قتلته به ، وتهرأ
الجلد الذي على عقد اصابعي ، وورمت يدي فما تدفعني » ، وأظهر
لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام اصابعه .

وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش له بنت
اسمها رفول قد سباهها الافرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل
من لقيه: « سبيت رفول ! » فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا
في جانب الماء سوادا ، فقلنا لبعض الغلمان : « اسبح ابصر ما هذا
السواد » ، فمضى إليه فاذا ذلك السواد رفول عليها ثوب ازرق وقد
رمت نفسها من على فرس الافرنجي الذي أخذها ففرقت ، وعلق
ثوبها في شجرة صمصاف .

فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش ، فكانت الصيحة التي وقعت في
الافرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عز وجل لا بقوة
ولا بعسكر ، فتبارك الله القادر على ما يشاء .

وقد يكون الترهيب في بعض الاوقات نافعا في الحرب .

من ذلك أن أتابك ، وصل الشام وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة ، وسار قاصدا دمشق ، فلما نزلنا القطيفة قال لي صلاح الدين رحمه الله : اركب وتقدمنا الى الفستقية (١١٤) . أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر الى دمشق . فتقدمت وفتت ساعة ، وإذا صلاح الدين قد أتى في قلة من أصحابه ، فرأينا في عذراء بخانا ، فأرسل خيلا تبصر ما هو بالخان ، فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء ، فانهزموا ، فتبعهم صلاح الدين ونحن معه لعل في ثلاثين أربعين فارسا فوصلنا القصير وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير قاطع الجسر ، ونحن عند الخان ، فوقفنا مستترين بالخان ويخرج منا خمسة ستة فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون الى خلف الخان نوهمهم أن لنا كمينا .

ونفذ صلاح الدين فارسا إلى أتابك يعرفه بما نحن فيه ، فرأينا نحوا من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين ، والعسكر خلفهم متتابع ، فوصلونا وإذا هو أتابك قد تقدم ، والعسكر في إثره ، فأنكر على صلاح الدين فعله وقال : « تسرعت الى باب دمشق بثلاثين فارسا لتكسر ناموسي » ، ولامه ، وهم يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون .

فلما وصلنا أوائل العسكر قلت لصلاح الدين : « عن أمرك أخذ هؤلاء النين قد وصلوا ، وأعبر إلى خيل دمشق الواقعة مقابلنا أقلعهم » ، قال : « لا ، كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا ، ما تسمع أي شيء قد عمل بي ؟ » .

ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخيل كانوا قلعونا . وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، من شيزر نريد كفر طاب ، ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على

كفرطاب من غلة وقطن ، فانتشر الناس في النهب وخيل كفرطاب قد ركبت ووقفت عند البلد ، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن ، وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قال : « جاءت خيل أفامية » ، فقال عمي : « تقف أنت مقابل خيل كفرطاب ، وأسير أنا بالعسكر ألقى خيل أفامية » ، فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين ، ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيّلون للفرنجة ويعودون إلى شجر الزيتون ، والافرنج يعتقدون أننا في جماعة فهم يجتمعون ويصيحون ويدفعون خيلهم إلى أن يقربوا منا ونحن لا نتزعزع فيرجعوا ، فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وانهزم الافرنج الذين جاؤوا من أفامية .

فقال له بعض غلمانه : « يامـولاي ، ترى ما فعل - يعني - تخلف عنك وما سار معك اللقاء خيل أفامية » ، فقال له عمي : « لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفرطاب وراجلها ، كانوا أخذوا هذا العالم كله » .

فكان التهريب والتخييل للافرنج في ذلك الوقت أنفع من قتالهم لأننا كنا في قلة وهم في جمع كثير .

وجرى لي مثل ذلك بدمشق ، كنت يوما مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، فأتاه فارس فقال : « قد أخذ الحرامية قافلة في العقبة حاملة خام » ، فقال لي : « نركب اليهم ؟ » قلت : « الأمر لك ، أمر الشاوشية تستركب العسكر معك » ، قال : « أي شيء حاجتنا إلى العسكر ؟ » قلت : « وما يضرنا من ركوبهم ؟ » ، قال : « ما نحتاجهم » ، وكان ، رحمه الله ، من أشجع الفرسان ، ولكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرة .

فركبنا في نحو من عشرين فارسا فلما أن ضحونا نفذ فارسين كنا ، وفارسين كنا ، وفارسين كنا ، وفارسا كنا يكشفون الطرقات ، وسرنا نحن في قلة فحانت صلاة العصر ، فقال لغلام

لي : « ياسونج ، اشرف مغربا إلى ما نصلي » ، فما سلمنا إلا والغلام يركض ، قال : « هذه الرجالة ، وعلى رؤوسهم شقاق الخام ، في الوادي » ، فقال معين الدين ، رحمه الله : « اركبوا » ، قلت : « أمهل علينا نلبس كزاغنداتنا ، فاذا رايناهم رميناهم برؤوس الخيل ، وطعنناهم فما يدرون كثيرا نحن أو قليل » . قال : « إذا وصلنا إليهم لبسنا » .

وركب وسرنا اليهم ، فلحقناهم في وادي حلبون وهو واد ضيق لعل ما بين الجبلين خمسة أذرع ، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة ، وطريقه ضيقة إنما يمشي فيها فارس خلف فارس ، وهم في سبعين رجلا بالقسي والذشاب .

فلما وصلناهم كان غلماننا خلفنا بسلحنا لا يصادون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في سفح الجبل ، فظننت أن النين في الوادي من أصحابنا فلاحي الضياع قد فزعوا خلفهم ، والنين في سفح الجبل هم الحرامية ، فجذبت سيفي وحملت على النين في السفح . فلما طلع الحصان في ذلك الوعر إلا بأخر روحه ، فلما صرت اليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوفى واحد منهم نشابته في فوقه ليضربني . فصحت عليه وتهددته ، فمسك يده عني ، وعدت انزلت الحصان وما اصدق اخلص منهم .

وطلع الأمير معين الدين إلى أعلى الجبل يظن أن هناك من الفلاحين من يستنفذهم ، وصاح إلي من أعلى الجبل « لاتفارقهم حتى أعود » وتوارى عنا ، فرجعت إلى النين في الوادي وقد علمت انهم من الحرامية فحملت عليهم وحدي لضيق المكان فانهزموا ، ورموا ما كان معهم من الخام ، وخلصت منهم بهيمنتين كانتا معهم عليهما خام أيضا ، وطلعا إلى مغارة في سفح الجبل ونحن نراهم وما لنا إليهم سبيل .

وعاد الأمير معين الدين ، رحمه الله ، آخر النهار وما وجد من يستنفره .

ولو كان معنا العسكر كنا ضربنا رقابهم واستخلصنا كل ما معهم .

وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا ، والسبب فيه نفاذ المشيئة ، ثم قلة المخبرة بالحرب ، وذلك أننا سرنا مع الأمير قطب الدين خسرو ابن تللي من حماة نريد دمشق إلى خدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، فوصلنا إلى حمص . فلما عزم على الرحيل على طريق يعلايك قلت له : « انا أتقدم أبصر كنيسة تغنايل إلى حين تصل » ، قال : « افعل » .

فركبت ومضيت . فأنا في الكنيسة جاءني فارس من عنده يقول : « قد خرجت رجالة حرامية على قافلة أخذوها ، فاركب والقني إلى الجبل » ، فركبت ولقيته ، فصعدنا في الجبل فرأينا الحرامية في واد تحتنا ، والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي ، فقال له بعض أصحابه : « ننزل إليهم ؟ » قلت : « لاتفعل ، ندور على الجبل ونصير فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم إلى المغرب ، ونأخذهم » ، وكانوا من بلاد الأفرنج ، فقال آخر : « إلى ما ندور على الجبل ، نكون قد وصلنا إليهم وأخذناهم » ، فنزلنا ، فلما رأنا الحرامية صعدوا في الجبل ، فقال لي : « اصعد إليهم » ، فحرصت على الطلوع ، فما قدرت .

وكان على الجبل منا خيالة ستة سبعة . فترجلوا إليهم ، وجاءوا يهودون خيلهم معهم ، وأولئك في جماعة ، فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين ، وأخذوا حصانيهما وحصانا آخر ، وسلم صاحبه ، ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة ، وعنا نحن وقد قتل منا فارسان وأخذ منا ثلاثة حصن والقافلة ، فهذا تقرير لقلة المخبرة بالحرب .

فأما التفرير في الاقدام فما هو للزهد في الحياة ، وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالاقدام ووسم باسم الشجاعة وحضر القتال طالبتة همته بفعل ما يذكر به ويعجز عنه سواه ، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر ، فتكاد تغلبه وتصده عما يريد يفعله ، حتى يضطرها ويحملها على مكروهاها ، فيعتريه الزممع وتغير اللون لذلك ، فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه .

ولقد حضرت حصار حصن الصور (١١٥) مع ملك الامراء اتابك زنكي ، رحمه الله - وقد تقدم شيء من ذكره - وكان للإمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن ارتق رحمه الله . وكان مشحونا بالرجال الجرخية ، وذلك بعد كسرتة على آمد ، فأول ما ضربت الخيام نفذ رجلا من أصحابه صاح تحت الحصن : « يا جماعة الجرخية ، يقول لكم اتابك : ونعمة السلطان لئن قتل من أصحابي رجل واحد بذسابكم لا قطعن أيديكم » ، ونصب على الحصن الجانيق .

فهدمت جانبا منه وما بلغ الهدم منه بحيث تطلع اليه الرجال ، فجاء رجل من جندارية اتابك من أهل حلب يقال له ابن العريق ، طلع في تلك الثغرة وضاربهم ، بسيفه فجرحوه عدة جراح ورموه من البرج الى الخندق ، وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن ، وطلع نواب اتابك إليه فأخذ مفاتيحه فنفذها الى حسام الدين تمرقاش بن إيلغازي بن ارتق ، واعطاه الحصن .

واذفق أن نشابة جرخ ضربت رجلا من الخراسانية في ركبته قطعت الفلكة التي على مفصل الركبة ، فمات .

فأول ما ملك اتابك الحصن استدعى الجرخية ، وهم تسعة نفر ، فجاؤوا وقسيهم موتورة على أكتافهم ، فأمر بحز إبهاماتهم من زنوبهم ، فاسترخت أيديهم وتلافت .

وأما ابن العريق فداوى جراحه وبرأ بعد أن شارب الموت ، وكان رجلا شجاعا يحمل نفسه على الاخطار .

ورأيت مثل ذلك وقد نزل أتابك على حصن البارعية (١١٦) وحوله صفا صخر لا تنضرب عليه الخيام ، فنزل أتابك في الوطى ووكل به الامراء بالذوبة ، فركب إليه أتابك يوما والذوبة للامير ابي بكر الديبسي وما معه أهبة القتال ، فوقف أتابك وقال لأبي بكر : « تقدم قاتلهم » . فزحف بأصحابه وهم أعراء ، وخرج اليهم الرجال من الحصن ، فتقدم رجل من أصحابه يقال له مزيد لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة ، فقاتل قتالا عظيما وضرب فيهم بسيفه وفرق جمعهم ، وجرح عدة جراح ، فرأيته قد حملوه الى العسكر وهو في آخر رمقه ، ثم عوفي ، وقدمه أبو بكر الديبسي وخلع عليه وجعله من جملة جناريتة .

كان أتابك يقول لي : « ثلاثة غلمان : أحدهم يخاف الله تعالى ، وما يخافني - يعني زين الدين علي كوجك ، رحمه الله - والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى يعني نصير الدين جقر ، رحمه الله ، والآخر ما يخاف الله ولا يخافني - يعني صلاح الدين محمد بن أيوب اليفسياني ، رحمه الله -

وشهدت منه ، تجاوز الله عنه ، ما يحقق قول أتابك ، وذلك أنا زحفنا يوما إلى حمص وقد أصاب الأرض في الليل مطر عظيم حتى ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الأرض بالوحل ، والرجالة يتناوشون ، وصلاح الدين واقف وأنا معه ، ونحن نرى الرجالة بين أيدينا ، فعدا واحد من الرجالة إلى رجالة حمص اختلط بهم ، وصلاح الدين يراه ، فقال لواحد من أصحابه : « هات ذاك الرجل الذي كان إلى جانبه » ، فمضى أحضره ، فقال له : « من هذا الذي كان انهزم من جانبك وبخل الى حمص ؟ » قال : « والله ، يامولاي ، ما أعرفه » ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل ، فإن كان يعرفه أو مته بذنب ضربت

رقيبته ، وإلا ترى فيه رأيك » ، فكأنه جنح الى قولي ، فقال غلام له من خافه : « يهرب واحد يؤخذ الذي كان بجانبه تضرب رقيبته اويوسط » ، فاحذقه كلامه وقال : « وسطوه » ، فرفسوه كجاري العانة ووسطوه ، وما له ننب إلا اللجاج وقلة مراقبة الله تعالى .

وحضرته مرة أخرى بعد ما وصلنا من مصاف بغداد ، وأتابك يجتهد يظهر تجلدا وقوة وقد أمر صلاح الدين بالسير الى الامير قفجاق يكبسه ، فسرنا من الموصل ستة أيام ونحس في غاية الضعف ، فوصلنا موضعه وجدهنا قد تعلق في جبال كوهستان ، فنزلنا على حصن يقال له ماسر ، ونزلنا عليه طلوع الشمس ، وامرأة طلعت من الحصن قالت : « معكم خام ؟ » قلنا : « أي وقت هذا للبيع والشراء ؟ » ، قالت : « نريد الخام نكفدكم به ، فإلى خمسة أيام تموتون كلكم » ، تريد أن ذلك الموضع وخم .

فنزل ورتب الزحف إلى الحصن من بكرة وأمر النقايبين يدخلون تحت برج من تلك البراج ، والحصن كله معمور بالطين ، والرجال الذين فيه من الفلاحين ، فزحفنا اليه وطلعنا إلى تلة ، ونقب الخراسانية برجا فوق وعليه اثنان . أما الواحد فمات وأما الآخر فأخذ أصحابنا وجأؤوا به الى صلاح الدين ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي ، هذا شهر رمضان ، وهذا رجل مسلم لا تذقد أثمه » ، قال : « وسطوه حتى يسلموا الحصن » قلت : « يامولاي ، الحصن الساعة تملكه » ، قال « وسطوه » ، ولج فيه فوسطوه ، وأخذنا الحصن في ساعتنا تلك ، فجاء الى الباب يريد قوما من أصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرق العسكر الذي كان معه ، ثم ركب وقال لي : « اركب » . فركبنا وطلعنا الى الحصن . فجلس وأحضر ناطور الحصن يعرفه بما فيه ، وأحضر بين يديه نساء وصبياناً نصارى ويهود .

فحضرت عجوز كربية ، فقالت لذلك الناطور : « رأيت ابني فلانا ؟ » ، قال : قتل ، ضربته نشابة ، قالت : « فابني فلان ؟ » قال :

وسطه الأمير ، فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالقطن المندوفة ، فقال لها الناطور : « اسكتي لأجل الأمير » قالت : « وأي شيء بقي الأمير يعمل بي ، كان لي ولدان قتلهما » ، فدفعوها .

ومضى الناطور فأحضر شيخا كبيرا مليح الشبهة يمشي على عصاتين سلم على صلاح الدين ، قال : « أي شيء هو هذا الشيخ ؟ » ، قال « إمام الحصن » ، قال : « تقدم يا شيخ تقدم » فتقدم ، حتى جالس بين يديه ، فمديه قبض لحيته وأخرج سكينه مشدوبة في بند قبائه وقطع لحيته من حركته ، فبقيت في يده مثل البرجم (١١٧) فقال له ذلك الشيخ : « يا مولاي ، بأي شيء استوجبت أن تفعل بي هذا الفعل ؟ » ، قال : « بعصيانك على السلطان ، قال : « والله ، ما علمت بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة أعلمني واستدعاني » .

ثم رحلنا نزلنا على حصن آخر للأمير قفجاق يقال له الكرخيني (١١٨) . أخذناه فوجدوا فيه خزانة ملأى بثياب خام مخططة صدقة لفراء مكة ، وسبى من كان في الحصن من النصراني واليهود المعاهدين ، ونهب ما فيهما نهب الروم . قاله سبحانه يتجاوز عنه . أقف من هذا الفضل عند هذا الحد متمثلا بقولي :

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم
فيما يشيب ذكره المولود (١١٩)

وأعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والاسماعيلية في حصن شيزر اجتاز في ذلك اليوم ابن عم لي يقال له أبو عبد الله بن هاشم رحمه الله فرأى رجلا من الباطنية في برج من دار عمي معه سيفه وترسه ، والباب مفتوح وبرأ منه خلق كثير من أصحابنا وما يجسر أحد يدخل إليه ، فقال ابن عمي لواحد من أولئك الوقوف : « أدخل إليه » فدخل إليه ، فما أمهله الباطني أن ضربه فجرحه ، فخرج وهو مجروح ، فقال لآخر : « أدخل إليه » فدخل إليه ، فضربه

الباطني فجرحه وخرج كما خرج صاحبه ، فقال ابـن عمي : « يارئيس جـواد ابـخـل اليه » فقـال له الباطني : « يامـؤاـجر (١٢٠) أنت ليش ماتتخل ؟ تداخل الى الناس وأنت واقف ، ابخل حتى تبصر » فدخل اليه الرئيس جواد فقتله ، وهذا الجواد حكم في الثقاف ، رجل شجاع ثقـف .

ومامر عليه الا اعوام قليلة حتى رأيته بدمشق سنة أربع وثلاثين وخمس مائة وهو علاف يبيع الشعير والتبن ، وقد كبر حتى صار كالشن البالي يعجز عن دفع الفأر عن علفه ، فمـا بـال الرجال ؟ فكنت أتعجب من أول أمره ، عندما صار اليه آخر أمره ، وماأحال من حاله طول عمره .

ولم أدر أن داء الكبر عام ، يعدي كل من أغلفه الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين ، وأبلاني مر الأيام والسنين ، صرت كجواد العلاف ، لاالجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ، وبخل من الكبر بعضي في بعض ، حتى أنكرت نفسي ، وتحسرت على أمسي ، وقلت في وصف حالي :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردا

لم يبق طول العمر مني منة

القي بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفت قواي وخانني الثقتان
من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت أنني حامل
جبلا وأمشي ان مشيت مقيدا

وأدب في كفي العصا وعهدتها
في الحرب تحمل اسمرا ومهندا

وأبيت في لين المهاد مسهدا
قلقا كأنني افترشت الجلمدا

والمرء يذكس في الحياة وبينما
بلغ الكمال وتم عاد كما بدا (١٢١)

وأنا القائل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة وما كان أعجل
تقصيه وأسرعه :

أنظر الى صرف دهرى كيف عوبنى
بعد المشيب سوى عاداتي الاول

وفي تغاير صرف الدهر معتبر
وأى حال على الايام لم تحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت
نكيتها باقتداح البيض في القلل

همي منازل الاقران احسبهم
فرائسى فهم منى على وجل

أمضى على الهول من ليل وأهجم من
سيل وأقدم في الهيجاء من أجل

فصرت كالغاة المكسال مضجعها
لى الحشايا وراء السجف والكلل

قد كنت أعفن من طول الثواء كما
يصدى المهند طول اللبث في الخلل

أروح بعد دروع الحرب في حلل
من الد بيقى فبؤسا لي وللحلل

وما الرفاهة من رامي ولا أربي
ولا التنعيم من شأني ولا شغلي

ولست أرى بلوغ المجد في رفه ولا
العلى دون حطم البيض والأسل (١٢٢)

وكننت أظن أن الزمان لا يبلى جديده ، ولا يهي شديده ، وأني اذا
عدت الى الشام وجدت به أيامي كعهدي ، وماغيرها الزمان
بعدي ، فلما عدت كذبتني وعود المطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب
اللامع ، اللهم غفرا هذه جملة اعتراضية عرضت ، وذفته هم اقضت
ثم انقضت أعود الى المهم ، وأدع تعسف الليل المدلهم ، لو صفت
القلوب من كدر الذنوب ، وفوضت الى عالم الغيوب ، علمت أن
ركوب اخطار الحروب ، لا ينقص مدة الاجل المكتوب .

فإنني رأيت يوم تقاتلنا نحن والاسماعيلية في حصن شيزر معتبر
يوضح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل ، أن العمر موقت
مقدر ، لا يتقدم أجله ولا يتأخر ، وذلك أننا بعد فراغنا ذلك اليوم من
القتال ، صاح اذسان من جانب الحصن : « الرجال ! » وعندي
جماعة من أصحابي معهم سلاحهم ، فبادرنا الى الذي
صاح ، فقلنا : « مالك ؟ » فقال : « حس الرجال هاهنا » فجئنا الى
اصطبل خال مظلم ، فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهم
سلاحهما ، فقتلناهما ، ووجدنا رجلا من أصحابنا مقتولا ، وهو
على شيء ، فرفعناه وجدنا تحته رجلا من الباطنية قد تسجى ورفع

المقتول على صدره ، فحملنا صاحبنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبنا في الجامع بالقرب من ذلك المكان وفيه جراح عظيمة ، ولانذك أنه ميت لايتحرك ويتنفس ، وأنا والله كنت احرك رأسه على بلاط الجامع برجلي ، ولانذك أنه ميت كان المسكين اجتاز بذلك الاصطبل فسمع حسا ، فادخل رأسه ليحقق السماع ، ف جذبته واحد منهم وضربوه بالسكاكين حتى ظنوا أنه قد مات ، ف قضى الله سبحانه ان خيطت تلك الجراح في رقبتة وفي جسمه وعوفي وعاد من الصحة الى ماكان عليه ، فتبارك الله مقدر الأقدار وموقت الآجال والأعمار .

وشاهدت مايقارب ذلك وهو أن الأفرنج ، لعنهم الله ، اغاروا علينا ثلث الليل الآخر ، فركبنا نريد نتبعهم ، فمنعنا عمى عز الدين ، رحمه الله من اتباعهم وقال : « هذه مكيدة ، والاغارة ماتكون بالليل » ، وخرج من البلد رجاله خلفهم ماعلمنا بهم ، فوقع الأفرنج ببعضهم عند رجوعهم قتلوهم وسلم بعضهم .

وأصبحت أنا واقفا في بندر قنين قرية عند المدينة ، فرأيت ثلاثة شخوص مقبلة : أما اثنان فكانا للناس ، وأما الأوسط فما وجهه كوجوه الناس ، فلما ندوا منا وإذا الوسيطاني منهم قد ضربه أفرنجي بسيف في وسط انفه فقطع وجهه الى انفيه ، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين ، فدخل البلد وخاط الجرائحي وجهه ودأواه ، فالتحم ذلك الجرح ، وعوفي وعاد الى ماكان عليه الى أن مات على فراشه ، كان يبيع الدواب ويسمى ابن غازي المشطوب ، وانما سمي المشطوب بتلك الضربة ، فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح معتبر ، فكم اقيت من الأهوال ، وتقدمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجروح - وأنا من الأجل في حصن حصين - الى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت

الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالصحة
داء » فاعقبت النجاة من تلك الأهوال ، وما هو أصعب من القتل
والقتال ، وكان الهلاك في كنة الجيش ، أسهل من تكاليف
العيش ، استرجعت مني الأيام بطول الحياة ، سائر محبوب
الذات ، وشاب كدر الزكد ، صفو العيش الرغد ، فأنا كما قلت :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

إذا كتبت بخطي جد مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وان مشيت وفي كفي العصا ثقلت
رجلي أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد (١٢٣)

ضعفت القوة ووهت ، وتقضت بلهنية العيش وانتهت ، ونكسني
التعمير بين الأنام ، وإلى الخمول يؤول تسعر الظلام ، حتى
أصبحت كما قلت :

تناستني الأجال حتى كأنني
دريئة سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون منة
كأنني إذا رمت القيام كسير

أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها
علي إذا رمت السجود عسير

وقد اندرقتني هذه الحال أنني
ننت رحلة مني وحن مسير (١٢٤)

أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى
أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من
خدمتهم ، ورددت عليهم ماخولوني من نعمهم ، لعلمي أن ضعف
الهرم ، لا يقوى على تكاليف الخدم ، وأن سوق الشيخ الكبير ،
لا ينفق على الأمير ، ولزمت داري ، وجعلت الخمـــــول
شعاري ، ورضيت نفسي بالانفراد في الغربية ، ومفارقة الاوطان
والترربة ، الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبرا لا سير
على قدمه ، والظمان ذي الغلة عن ورده ، فناداني اليه مكاتبة مولانا
الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاســـــلام
والمسلمين ، جامع كلمة الايمان ، قانع عبدة الصلبان ، رافع علم
العدل والاحسان ، محيي دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن
أيوب ، جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقاءه ، وأيدهم بماضي
سيوفه وأرائه ، وأضفى عليهم وارف ظله ، كما أضفى لهم من
الأكدار موارد فضله ، وأنفذ في البسيطة عالي أوامره
ونواهيه ، وحكم صوارمه في أعناق اعاليه ، برحمة

نقبت عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض
لامال لدي ولا أهل فاستنقذني من أنياب الذوائب بـــــرأيه
الجميل ، وحملني الى بابه العالي بانعامه الغامر الجزيل ، وجبر
ماهاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ماكسد على من سواه من
علو سسني ، فغمــــرنني ربغـــــرائب الرغائب ، وانهبني من
أنعامه أهني المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ، ما أسلفت
سواه من الخدم ، فهو يعتد لي بذلك ويرعاه ، رعاية من كأنه

شاهده وراه ، فعطاياه تطرقني وأنا راقد ، وتسري إلي وأنا محتسب قاعد ، فأنا من انعامه كل يوم في مزيد ، واكرام كتكرمه الأهل ، وأنا أقول العبيد ، أمني جميل رأيه حـادث الحادثات ، وأخلف لي انعامه ماسلبه الزمان بالذكبات المجذفات ، وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته مايعجز الاعناق عن حمل أيسر منته ، ولم يبق لي جوده أملا أرجو نيله ، أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله ، والرحمة التي تدارك بها العباد ، وأحيي ببركاتها البلاد ، والسلطان الذي أحيى سنة الخلفاء الراشدين ، وأقام عمود الدولة والدين ، والبحر الذي لاينضب لكثرة الواردين ماؤه ، والجواد الذي لاينقطع من تتابع الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع ، ومن انعامه في ربيع مريع ، ومن عدله في أنوار تكشف عنهم ظلم المظالم ، وتكف بسطة يد المعتدي الغانم ، ومن دولته القاهرة في ظل وارف ، وفي صعود متتابع أنف في أثر سالف ، وماتعاقب الليل والنهار ، ودار الفلك الدوار :

دعوت وقد أمن الحافظان

وذو العرش ممن دعاه قريب

وقد قال سبحانه للعباد

سلوني فاني سميع مجيب (١٢٥)

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله
اجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .